

مجلـــــــــــة

آداب الرافدين

علميّـــة محكّمـــة

فصليـــّة

تصـــدر عن كليـــة الآداب

العـــدد: التاسع والسبعون

السنـــة: التاسعة والأَربعون

الموصـــــــل

١٤٤١هـــ / ٢٠١٩م

الهيئة الاستشارية

توجه المراسلات باسم رئيس هيئة التحرير

كلية الآداب / جامعة الموصل – جمهورية العراق

E-mail: adabarafidayn@gmail.com

الرمز الدولي : ISSN 0378- 2867

E ISSN 2664-2506

P ISSN 1813-0526

رقم إيداع المجلة في المكتبة الوطنية ببغداد : ١٤ لسنة ١٩٩٢

للتواصل: radab.mosuljournals.com



آداب الرافدين

مجلة محكّمة تعنى بنشر البحوث العلمية الموثّقة في الآداب والعلوم الإنسانية

باللغة العربية واللغات الأجنبيَّة

العدد: التاسع والسبعون	السنة: التاسعة والأربعون

(تشرين الأوّل/ تشرين الثاني/ كانون الأوّل لسنة ٢٠١٩)

قواعد النشر في المجلة

- يقدم البحث مطبوعاً بدقة، ويكتب عنوانه واسم كاتبه مقروناً بلقبه العلمي للانتفاع باللقب في الترتيب الداخلي لعدد النشر.
- تكون الطباعة القياسية بحسب المنظومة الآتية: (العنوان: بحرف ١٦/ المتن: بحرف ١٤/ الهوامش: بحرف ١٢)، ويكون عدد السطور في الصفحة الواحدة: (٢٧) سطراً تحت سطر ترويس الصفحة بالعنوان واسم الكاتب واسم المجلة، ورقم العدد وسنة النشر، وحين يزيد عدد الصفحات في الطبعة الأخيرة داخل المجلة على (٢٥) صفحة للبحوث الخالية من المصورات والخرائط والجداول وأعمال الترجمة، وتحقيق النصوص، و (٣٠) صفحة للبحوث المتضمنة للأشياء المشار إليها، تتقاضي هيئة التحرير مبلغ (٢٠٠٠) دينار عن كل صفحة زائدة فوق العددين المذكورين، فضلاً عن الرسوم المدفوعة عند تسليم البحث للنشر والحصول على ورقة القبول؛ لتغطية نفقات الخبرات العلمية والتحكيم والطباعة والإصدار .
- ترتب الهوامش أرقاماً لكل صفحة، ويعرّف بالمصدر والمرجع في مسرد الهوامش لدى وورد ذكره أول مرة، ويلغى ثبت (المصادر والمراجع) اكتفاءً بالتعريف في موضع الذكر الأول .
- يقدم الباحث تعهداً عند تقديم البحث يتضمن الإقرار بأنَّ البحث ليس مأخوذاً (كلاً أو بعضاً) بطريقة غير أصولية وغير موثقة من الرسائل والأطاريح الجامعية والدوريات، أو من المنشور المشاع على الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت).
- يحال البحث إلى خبيرين يرشحانه للنشر بعد تدقيق رصانته العلمية، وتأكيد سلامته من النقل غير المشروع، ويحال – إن اختلف الخبيران – إلى (محكم) للفحص الأخير وترجيح جهة القبول أو الرد .
- لا ترد البحوث إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر .
- يتعين على الباحث إعادة البحث مصححاً على هدي آراء الخبراء في مدة أقصاها (شهر واحد)، ويسقط حقه بأسبقية النشر بعد ذلك نتيجة للتأخير، ويكون تقديم البحث بصورته الأخيرة في نسخة ورقية وقرص مكتنز (CD) مصححاً تصحيحاً لغوياً وطباعياً متقناً، وتقع على الباحث مسؤولية ما يكون في بحثه من الأخطاء خلاف ذلك، وستخضع هيئة التحرير نسخ البحوث في كل عدد لقراءة لغوية شاملة أخرى، يقوم بها خبراء لغويون مختصون زيادة في الحيطة والحذر من الأغاليط والتصحيفات والتحريفات، مع تدقيق الملخصين المقدمين من جهة الباحث باللغة العربية أو بإحدى اللغات الأجنبية، وترجمة ما يلزم الترجمة من ذلك عند الضرورة .

((هيئة التحرير))

المحتويـــــــــــات

العنـوان	الصفحة
أعلام النثر الفني في مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار... لابن خميس المالقي (ت بعد ٦٣٩ هـ) كُتَّابٌ وسِيَر غيرية أ.د.يونس طركي سلوم البجاري	١ - ٣٢
علاقة التشبيه بالدلالة مقالات ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في العزلة والصبر في صيد الخاطر أنموذجًا أ.م.د. أَسماء سعود إدهام الخطّاب و أماني طلال يحيى	٣٣ - ٥٦
بلاغة اللغة الاشارية في تشكيل صورة المعنى في الخطاب القرآني أ.م.د. عدنان عبدالسلام الأسعد و أ.م.د. معن توفيق دحام	٥٧ - ٩٠
نبذة في علم القافية لشمس الدين محمد موسى الحسيني الحجازي المالكي أ.م.د. معن يحيى محمد العبادي	٩١ - ١١٨
شعريَّة المديح عند صالح المِعمار الموصليّ (ت١١٦٢هـ) أ.م.د. مقداد خليل قاسم الخاتوني	١١٩ - ١٥٨
بلاغة المناسبة في سورة الكوثر أ.م.د. صالح ملا عزيز	١٥٩ - ٢٠٠
توظيف التاريخ في مسرحيات عماد الدين خليل م.د. ربيع خزعل محمود العزاوي	٢٠١ - ٢٢٤
شَرْحٌ على أبياتِ البطليوسيّ في تصريفِ الفعلِ المحذوفِ الفاءِ واللَّامِ في صيغةِ الأَمرِ لعبدالرحمن السلاسيّ (ت١١١٨هـ)- تحقيق ودراسة – م.د.شيبان أديب رمضان الشيباني	٢٢٥ - ٢٦٢
مسائل (قل ولا تقل) في كتاب (الفصيح) لأبي عباس ثعلب- دراسة لغوية م.د. حكيم عبدالنبي حسن	٢٦٣ - ٢٩٤
المصطلح النقدي في تراث أحمد مطلوب(رحمه الله) بين القديم والحديث م.د. محمد غانم شريف	٢٩٥ - ٣١٦
رؤية شعراء صدر الإسلام لأحداث الهجرة م.م وضاح حسن خضر الحديدي	٣١٧ - ٣٣٢
التناص في شعر السيد محمد سعيد الحبوبي (١٨٤٩ – ١٩١٥) م.م.عبد الغني حميد حسين	٣٣٣ - ٣٧٢
العلاقات السعودية – البريطانية في ضوء مشروع سوريا الكبرى ١٩٤٦- ١٩٤٨ دراسة وثائقية أ.م.د. فهد عباس سليمان السبعاوي و م.د اسماعيل محمد حسن الجبوري	٣٧٣ - ٤٠٠
بدر بن حسْنَويه الكردي وأعماله الخيرية (٣٦٩-٤٠٥هـ/٩٧٩-١٠١٤م) "دراسة تأصيلية تأريخية" أ.م.د. كريم محمد ككو و م.د. أردلان إسماعيل عمر السروجي	٤٠١ - ٤٤٠

رحلة حج السلطان موسى بن أبي بكر التكروري ٧٢٤هـ/١٣٢٤م دراسة في مضامينها أ.م.د. بشار أكرم جميل	٤٤١- ٤٦٠
صناعة المنسوجات في إقليم الأحواز في العصر البويهي (٣٢٦- ٤٤٧هـ / ٩٣٧-١٠٥٥م) أ.م.د. حاتم فهد هنو	٤٦١- ٤٨٠
ترجمة ابو بكر الصديق (ﷺ) في كتاب المختار من مناقب الاخيار لمجد الدين بن الاثير(ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م) دراسة نصية أ.م. د. مها سعيد حميد	٤٨١- ٥٠٨
الملح واستعمالاته في بلاد الرافدين أ.م.د. سهيلة مجيد احمد	٥٠٩- ٥٢٠
المدينة الآمنة مقترح تصميم محلة سكنية عراقية حديثة من منظور سوسيولوجي أ.م. يوسف حامد السبعاوي	٥٢١ - ٥٤٨
استخدام تقنيات المعلومات في المكتبات الجامعية الحكومية في مدينة أربيل : المكتبة المركزية لجامعة صلاح الدين أنموذجاً أ.د.عمار عبداللطيف زين العابدين و م.م.شادية سعدالله عبدالله	٥٤٩- ٦١٠
توظيف تطبيقات الويب٢,٠ في تقديم خدمات المعلومات في المكتبات الجامعية مع تقديم مشروع توظيفه في مكتبة كلية الآداب في جامعة الموصل أ.م. سمية يونس الخفاف و رندة ميسر الرفاعي	٦١١- ٦٤٠
ابنُ الابَّار القُضَاعِيّ البلنسيّ (٥٩٥ -٦٥٨هـ/١١٩٩-١٢٦٠م) وَ منهجُه في كِتَابِه التَكمِلَة لكتاب الصِلَة أ.م.د. أحمد هاشم محمد صالح السبعاوي	٦٤١- ٦٨٤
الأقوال التي ضعّفها ابن عطية الأندلسي في تفسيره لمخالفتها مكان النزول عرضاً وتحليلاً ودراسةً السور والآيات المكيّة أنموذجاً م.د. أيوب آدم رسول البرزنجي	٦٨٥- ٧٣٢
دافعيَّة المقاصد الضرورية لحفظ حقوق الإنسان دراسة مقاصدية م.د. فراس فياض يوسف الحمداني	٧٣٣- ٧٥٢
أدلة وجود الله عند توما الاكويني دراسة نقدية مقارنة م.م. هبا عبد الاله يونس	٧٥٣- ٧٩٨
عمل المرأة وأبعاده في السلوك الإنجابي دراسة ميدانية في مدينة الموصل م.م.هيثم سعيد عبدالله عمر	٧٩٩- ٨٢٠

بلاغة المناسبة في سورة الكوثر

أ.م.د. صالح ملا عزيز *

تأريخ التقديم: ٢٠١٨/١١/١٥   تأريخ القبول: ٢٠١٨/١٢/٢٤

المقدمة

لقد اشْتملَتْ سورة (الكوثر) مع إيجازها على فنون بلاغية وافرة تنتمي إلى علوم البلاغة الثلاثة، وإن كانت فنون علم المعاني عليها أغلب وأظهر، وهي في مجموعها تتظافر لتشكل خطاباً أدبياً في أقصى درجات البلاغة وفي أقصر طرق التأليف ليكون تطميناً للرسول α بجزيل العطاء، ووعيداً شديداً لأعدائه بالبتر والقطع، وكان الزمخشري (٥٣٨ هـ) من أوائل من تنبه إلى هذا التميّز البلاغي في السورة فقال: "فأوحى اليه . أي رسوله . سورةً على صفةِ ايجازٍ واخْتِصارٍ، وذلك ثلاثُ آياتٍ قِصارٍ، جمعَ فيها ما لم يكنْ لِيجتمعَ لأحدٍ من فُرسانِ الكَلامِ، الذي يَخْطِمُونَه بالخِطامِ ويَقُودوُنه بالزِّمام [١]، كسحبانَ وابنِ عجلانَ [٢]، وأضرابِهما من الُخطباء المَصاقِعِ والبلغاء البواقِعِ[٣] الذين تفسّحت في هذا الباب خطاهم، وتنفَّسَ في ميادينه مداهم"[٤]، وفطن الفخر الرازي (٦٠٤ هـ) بذهنه الثاقب إلى ما في السورة من قوةِ مطلعٍ واستواء أجزاءٍ واحتوائها على نكاتٍ بلاغية وخلوّها من آثار التصنع، فأكّد أن "هذه السورة مع علوِّ مطلعها، وتمامِ مقطعها، واتصافِها

* قسم اللغة العربية/ كلية التربية /جامعة صلاح الدين .

(١) الخِطامُ: الزِّمام، يقال: وُضِع الخطامُ على أَنْفِ فلانٍ: مَلَكَه واسْتَبَدَّ به، ينظر: المعجم الوسيط: ٢٥٤، وكلا التعبيرين كناية عن امتلاك القوم لناصية البيان.

(٢) سحبانُ بن زفر بن إياس الوائلي، من باهلة: خطيبٌ يضرب به المثلُ في البيان، يقال: أخطبُ من سحبانَ، وأفصحُ من سحبانَ، اشتُهِر في الجاهلية، وعاش زمناً في الاسلام، وكان إذا خطب يسيلُ عرقاً، ولا يُعيد كلمةً، ولا يتوقفُ ولا يقعدُ حتى يفرغ، أسلمَ في زمن النّبيّ ولم يجتمع به، وأقام في دمشق أيام معاوية. ينظر: الأعلام: الزِّركلي، دار العلم للملايين، د.ط، بيروت . لبنان، د.ت: ٧٩/٣.

(٣) يقال: هو باقعةٌ من البواقع: للكيّس الداهي من الرجال، ينظر: أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، ط١، ٢٠٠٩: ٤٧.

(٤) اعجاز سورة الكوثر: جار الله الزمخشري، تحقيق: حامد الخفاف، دار البلاغة، ط١، ١٩٩١: ٥٥.

بما هو طرازُ الأمرِ كلِّه مِن مجيئها مشحونةً بالنُّكَتِ الجلائلِ، مكتنزةً بالمحاسنِ غيرِ القلائلِ، فهي خاليةٌ من تصنُّعِ مَن يتناولُ التّنكيتَ، وتعمُّلِ مَن يتعاطَى بمحاجَّتِهِ التَّبكيتَ"(١).

ويرى ابن النقيب (٦٩٨ هـ) أن سورة الكوثر جمعتْ بين مزايا الايجاز وبهجة الألفاظ وكمال المعاني ما جعلها ينطق بالاعجاز، إذ يقول: "سورةُ الكوثرِ أقصرُ سورة، وفيها من الألفاظ البديعة الرائقة التي اقتضت بها أن تكون مبهجةً، والمعاني المنيعة الفائقة التي اقتضت بها أن تكون معجزةً"(٢)، واستدلّ أبو حيان الأندلسي (٧٤٥ هـ) بالجمع بين نهاية القصر وغاية البلاغة على خاصية الاعجاز، فأفاد أن"سورة الكوثر أقصر سورة، وتضمّنت على المعاني البديعة ما أقربه أن يكون معجزةً"(٣)، وإلى مثله ذهب من القدامى السمين الحلبي(٤) (٧٥٦ هـ)، والآلوسي(٥) (١٢٧٠ هـ)، ومن المحدثين الشيخ محمد علي الصابوني(٦)، والدكتور سلمان العودة(٧) .

ويفصلّ أحدُ المحدثين ما حوته السورةُ . على ايجازها . من غنًى في المعاني، واتساقٍ لما قبلها وما بعدها، وجمالٍ في العرض، ودقةٍ في إصابة الهدف، وبُعدٍ عن الاسفاف، فيقول: سورة الكوثر هي أقصر سورة في القرآن الكريم، وفي تأمُّلِ محلها مما قبلها ومما بعدها، وصلتِها بالسياق القرآني

(١) نهاية الايجاز في دراية الاعجاز: فخر الدين الرازي، تحقيق: د. بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، ط١، بيروت . لبنان، ١٩٨٥: ٣٨٠.

(٢) مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن: ابن النقيب (٦٩٨هـ)، تحقيق: د. زكريا سعيد علي، مكتبة الخانجي، د.ط، القاهرة، د.ت: ٥٢١.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي(٧٤٥هـ): تحقيق: محمد رضوان عرقسوسي، محمد معتز كريم الدين، محمد أنس الخُن، دار الرسالة العالمية، ط١، سوريا، ٢٠١٥: ٢١/ ٥٠٣.

(٤) ينظر: الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون: السمين الحلبي، تحقيق: د. أحمد محمد الخرّاط، دار القلم، ط٣، دمشق، ٢٠١١ : ١١/ ١٢٨.

(٥) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: الآلوسي(١٢٧٠هـ)، تحقيق: ماهر حبّوش، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت . لبنان، ٢٠١٠: ٢٩/ ٣٧٢.

(٦) ينظر: الإبداع البياني في القرآن العظيم: محمد علي الصابوني، المكتبة العصرية، د.ط، بيروت . لبنان، ٢٠٠٩: ٤٣٨.

(٧) ينظر: إشراقات قرآنية . جزء عم ٢، د. سلمان العودة، مؤسسة الاسلام اليوم، ١٤٣٣هـ : ٣٣٦.

العام القريب والبعيد، وانسجامِها مع طريقة القرآن في عرض المعاني على تسلسل معين تجدُ عجباً[١].

وهذه الأسرار البلاغية التي تعاقبت عليها أقلام الدارسين قدماء ومحدثين في التأصيل والتطبيق كانت الوجه الأبرز الذي التفت إليه هؤلاء في تحليل السورة، لكنهم لم يشتغلوا بالقدر المطلوب على ما في السورة من بلاغة المناسبة في كلّ جوانبها فيلتمسوا خيوطاً تربط بينها وبين غيرها من السور، وبين مقاطعها وجملها وأفكارها المطروحة على ظاهر النص وباطنه، من هنا تأتي مشروعية هذه المقاربة الجمالية التي بين أيدينا عسى أن تجمع بين نظرات متناثرة جادت بها قرائح القدامى والمحدثين، وأن تضيف جديداً فيما فاتهم، وأن تشرح غامضاً يستعصي على الفهم في أمر مناسبة السورة طولاً وعرضاً.

يُروى عن ابن عباس χ أن سورةَ الكوثر نزلت في العاص بن وائل، وذلك أنه رأى رسول الله α يخرجُ من المسجدِ، وهو يدخُلُ، فالتقيا عند باب بني سهمٍ وتحدَّثا، وأناسٌ من صَناديد قريش في المسجد جُلوسٌ، فلما دخل العاصُ قالوا له: منِ الذي كنتَ تُحدِّثُ؟قال: ذاك الأبترُ . يعني النَّبيَّ α . وكان قد تُوفِّي قبل ذلك عبدُ الله ابن رسولِ الله α، وكان مِنْ خديجةَ، وكانوا يُسمُّون من ليس له ابنٌ: أبترَ، فأنزل اللهُ هذه السورةَ،[٢]، وعن ابن اسحاق أن العاص بن وائلٍ السَّهْميّ اذا ذُكِر رسولُ اللهِ α قال: دَعُوهُ، فإنما هو رجُلٌ أبترُ لا عقِبَ له، لو هلكَ انقطعَ ذكرُهُ واسترَحْتُمْ منه، فأنزل الله تعالى في ذلك (إنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ) إلى آخر السورة[٣].

وفي ملابسات النزول يبدو أن المجتمع كان ذكورياً يحفل بالرجال وينظر إلى مقام المرء في المستقبل من هذه الزاوية، ويعتمدون في هذا التفكير على أن الذَّكَر يقوم بمهمة الدفاع عن القبيلة وحرماتها، وأنه يقوم مقام والده . اذا مات . في ادارة شؤون البيت، وأنه وارثُهُ في السّمعة والسيادةِ أيضاً، غافلين عن أن أمر صاحب الرسالة لا يمتّ بصلة إلى تلك الأعراف، لأنه يستمدّ شرعيته

---

(١) الأساس في التفسير: سعيد حوى، دار السلام، ط١، القاهرة، ١٩٨٥: ٦ /٥٧٧ . ٥٧٨.

(٢) أسباب نزول القرآن: الواحدي (٤٦٨هـ): تحقيق: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت . لبنان، ١٩٩١: ٤٩٥.

(٣) المصدر نفسه: ٤٩٦.

من السماء، ولذلك فقد "كان هذا اللون من الكيد اللئيم الصغير يجد له في البيئة العربية التي تتكاثر بالأبناء صدًى ووقعاً، وتجد هذه الوخزة الهابطة من يهشُّ لها من أعداء رسول الله α وشانئيه، ولعلها أَوجعَتْ قلبَه الشريفَ ومسَّتْه بالغمِّ أيضاً، ومن ثَمَّ نزلت هذه السورة تمسحُ على قلبِه ﷺ بالرّوح والنّدى، وتقرّر حقيقةَ الخيرِ الباقي الممتدِّ الذي اختاره له ربُّه، وحقيقةَ الانقطاعِ والبَتْر المقدّرِ لأعدائه"(١).

وأشهرُ أسماء هذه السورة (سورة الكوثر)، وتسمّى أيضاً (سورة النحر)، وسمّاها البخاري (٢٥٦ هـ) وغيره (سورة إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)، وجمهور المفسرين على أنها مكية، وبعضهم يرى أنها مدنية، وترتيبها في التنزيل أنها نزلت بعد (سورة العاديات) وقبل (سورة التكاثر)(٢)، وفي ترتيب المصحف جاءت مسبوقةً بسورة الماعون ومتبوعةً بسورة الكافرون، ومن أغراضها تسليةُ النبي α باستبشاره بالخير الوافر وامتداد أمره، وتوجيهُه إلى الطريق الصحيح في مواجهة الأعداء بالاقبال على الله بالشكر والطاعة، وتهديدُ شانئيه بالاستئصالِ والقضاءِ على آثارهم ومعالم شخصيتهم مادياً ومعنوياً.

التمهيد

*** مفهوم المناسبة وقيمتها البلاغية**

المناسبة في اصطلاح دارسي الاعجاز "هي الارتباط بين الآيات القرآنية، أو بين السور بعضها مع بعض بوجود أمر يقارب بينها"(٣)، وقد أثنى العلماء قديماً وحديثاً على هذا العلم من علوم القرآن لما فيه من دقائق ولطائف تكشف عن عظمة كتاب الله وروعته، نقل الزركشي (٧٩٤ هـ)

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، ط١٠، بيروت، ١٩٨١: ٦/ ٣٩٨٧.

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ابن عاشور، مؤسسة التاريخ، ط١، بيروت . لبنان، د.ت: ٥٠١/٣٠ . ٥٠٢، ونظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، عبد الحميد الفراهي، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠١٢: ٧٨٩/٢، ٨٢٦، يرجح ابن عاشور والفراهي أنها مدنية، وعلى هذا الأساس يمضيان في تفسيرها ودقائق نظمها وسرّ موقعها وزمن نزولها.

(٣) علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف اعجازه، د. نور الدين عتر، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق . سورية، ط١، ٢٠١١: ٦، وينظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مؤسسة الرسالة، ط ٣٥، ١٩٩٨: ٨٨.

عن ابن العربي (٥٤٣ هـ) أنه قال: "ارتباطُ آي القرآنِ بعضُها ببعض حتى تكونَ كالكلمةِ الواحدة، متسقةَ المعاني، منتظمةَ المباني، علمٌ عظيمٌ"[١]، يستنتج من كلامه . فضلا عن التنويه بمكانة هذا العلم . أن علم المناسبة من وسائل تحقيق وحدة النص، وأن تلك الوحدة تتحقق على مستوى الأفكار والمعاني المطروحة في باطن النص، وعلى مستوى الأشكال والمقاطع والألفاظ في سطح النص سواء بسواء، يقول الزركشي: "واعلمْ أنّ المناسبةَ علمٌ شريفٌ تُحزَرُ به العقولُ، ويُعرَفُ به قدرُ القائلِ فيما يقولُ"[٢]، ويقول السيوطي (٩١١ هـ): "علمُ المناسبةِ علمٌ شريفٌ قلَّ اعتناءُ المفسرين به لدقته"[٣]، فالأول يرى أن المناسبة علم جليلٌ تظهرُ أهميته في كونه مقياساً لرجاحة عقل القائل فيما يقول من كلام متناسبِ الأجزاء متسقِ الأطراف لا تنافرَ بين مقاطعه، والثاني يؤكّدُ على جلالته أيضاً، مبيناً قلةَ تطبيقاتِه في أوساط المفسرين راجعاً سببه إلى دقة مسلكه ولطف استنباطه في تذوق النص القرآني والوقوف على آليات الربط وحيثيات التنسيق.

ومن المحدثين يقول الدكتور مصطفى مسلم عن دقة هذا العلم وطبيعته وما يحتاج اليه دارس الاعجاز من ثقافة وذوق للوقوف عليه: "علم المناسبات بين سور القرآن أو بين الآيات في السورة الواحدة من العلوم الدقيقة التي تحتاج إلى فهم دقيق لمقاصد القرآن الكريم، وتذوّق لنظم القرآن الكريم وبيانه المعجز، وإلى معايشة جوّ التنزيل، وكثيراً ما تأتي إلى ذهن المفسّر على شاكلة إشراقاتٍ فكريةٍ أو روحية"[٤].

وقيمة علم المناسبة ـ كما يذكر الزركشي ـ "وفائدتُه جعْلُ أجزاءِ الكلامِ بعضِها آخذاً بأعناقِ بعضٍ، فيقوى بذلك الارتباطُ، ويصيرُ التأليفُ حالُه حال البناءِ المحكمِ، المتلائمِ الأجزاء"[٥]، فالمناسبة علمٌ يُعرَف منه تعليلُ ترتيب أجزاء القرآن، وهو سرُّ البلاغة؛ لأدائه إلى تحقيق مطابقة

---

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، دار عالم الكتب، د.ط، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٣: ١/٧٠.

(٢) المصدر نفسه: ١/٦٩.

(٣) الاتقان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦ : ٢/٩٧٦.

(٤) مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى مسلم، دار القلم، ط٧، دمشق، ٢٠٠٩: ٥٨.

(٥) البرهان في علوم القرآن: ١/٧٠.

المقال لما اقتضاه الحال، ونسبة هذا العلم من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو[١]، ويزيدنا البقاعي (٨٨٥ هـ) بياناً لفائدة المناسبة فيقول: "وبهذا العلم يرسخ الايمان في القلب، ويتمكن من اللبّ، وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين: أحدهما نظمُ كلُّ جملةٍ على حيالها بحسب التركيب، والثاني نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب"[٢].

وبيان الإعجاز البلاغي وجمال الأسلوب في الخطاب القرآني من ثمرات هذا العلم الرصين، إذ "لمعرفة المناسبة فائدتها في إدراك اتساق المعاني، وإعجاز القرآن البلاغي، وإحكام بيانه، وانتظام كلامه، وروعة أسلوبه"[٣]، ويذهب الدكتور نور الدين عتر إلى أن "لعلم المناسبات فوائد تتصل بجلاء معنى النص أو بجماله، أو بتناسقه مع بعضه بعضاً وتآلفه، وتكشف أسراراً من البلاغة المعجزة في القرآن، مما يجعله أصلاً هاماً في التفسير التحليلي وفي التفسير الموضوعي"[٤]، ولهذه الأسباب وغيرها أعلن فخر الدين الرازي (٦٠٤ هـ) قبل هؤلاء جميعاً أن "أكثَرَ لطائفِ القُرآنِ مُودَعةٌ في التَّرتيباتِ والرَّوابِطِ"[٥]، ومن تطبيقاته في هذا المجال خلُص إلى "أَنَّ الْقُرْآنَ كَمَا أَنَّهُ مُعْجِزٌ بِحَسَبِ فَصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ وَشَرَفِ مَعَانِيهِ، فَهُوَ أَيْضًا مُعْجِزٌ بِحَسَبِ تَرْتِيبِهِ وَنَظْمِ آيَاتِهِ، وَلَعَلَّ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهُ مُعْجِزٌ بِحَسَبِ أُسْلُوبِهِ أَرَادُوا ذَلِكَ"[٦].

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي (٨٨٥ هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، ط٣، ٢٠٠٦: ١/ ٥.

(٢) المصدر نفسه: ١/٧.

(٣) مباحث في علوم القرآن: ٨٨.

(٤) علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف اعجازه: ٢٣.

(٥) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، (٦٠٦ هـ)، تحقيق: سيد عمران، دار الحديث . القاهرة، ٢٠١٢ : ٣٥٦/٥، عزا كل من الدكتور مصطفى مسلم والدكتور نور الدين عتر كلام الرازي إلى كتاب (البرهان في علوم القرآن) للزركشي على أنه نقله عن الرازي مع أن النص في تفسيره موجود كما أثبتناه في المتن، وما نقلاه عبارة عن دمج نصين أحدهما للرازي والآخر للزركشي هكذا: (علمُ المناسباتِ علمٌ عظيمٌ أودعت فيه أكثر لطائف القرآن وروائعه، وهو أمر معقولٌ اذا عُرِض على العقول تلقَّته بالقبول)، فيوهم القارئ أن النص كما أورداه للرازي، وهو ليس كذلك، فوسط النص للرازي بمعناه أو قريب منه، وما عداه للزركشي.

(٦) المصدر نفسه: ١٢٩/٤.

وتأسيساً على مقولات القدامى واعتماداً على المعطيات المعرفية الجديدة مقرونةً بالذوق الجمالي أفادَ غيرُ واحدٍ من المحدثين(١) من علماء البلاغة ودارسي الاعجاز أن جزءاً غير قليل من إعجاز القرآن الكريم وبلاغته عائدٌ إلى تلك المناسبات بين آياته وسوره، مما جعل النص القرآني شديدَ الإحكام، متناسب الأجزاء، منسجم الأطراف، متناغم المقاطع، يأخذ بعضه برقاب بعض في اطراد منتظم واتساق عجيب لا يُرى عليه آثار التعسف في الربط ولا خلخلة الصياغة في التنسيق. ومن تمام الفائدة أن يُشار في هذا المقام إلى أن علم المناسبة في جوهره وآلياته وتطبيقاته أقرب إلى روح الأدب وآفاقه المعرفية، ودليل ذلك توظيفه في حقل الأدب في النقد العربي القديم تحت مسميات أخرى مثل (التلاحم)، و(الافراغ)، و(السَّبك)، و(القِران) عند الجاحظ (٢٥٥هـ)، و(حسن النظام)، و(الارتباط)، و(التناسب) عند ابن رشيق القيرواني (٤٥٦هـ)، و(حسن النسق) عند ابن أبي الاصبع المصري (٦٥٤هـ)، يقول الجاحظ: "وأجودُ الشِّعرِ ما رأيتَه مُتلاحِمَ الأجزاء، سَهْلَ المَخارجِ، فتعلمُ بذلك أنه قد أُفرِغَ إفراغاً واحداً، وسُبِك سَبْكاً واحداً، فهو يجري على اللِّسان كما يجري الدِّهانُ"(٢)، وعلّق ابن رشيق القيرواني على كلام الجاحظ تعليقاً لطيفاً يشرح في جدارة الناقد البصير أسرار هذا الترابط وفوائده في عملية التلقي والتذوق والحفظ والاعانة على سرعة الاستذكار فيقول: "وإذا كان الكلامُ على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظُ لَذَّ سماعُهُ، وخفَّ مُحتملُه، وقَرُبَ فهمُهُ، وعَذُبَ النطقُ به، وحَلِيَ في قَلبِ سامِعِه، فإذا كان مُتَنافِراً مُتَبَايِناً عَسُرَ حِفْظُهُ، وثَقُلَ على لسانِ الناطقِ بهِ، ومَجَّتْهُ المَسَامِعُ فلم يستقرَّ فيها منه شيءٌ"(٣)، ويجعل الجاحظ هذا التلاحم مقياساً جمالياً يتمّ على أساسه التفاضل بين الشعراء والتفاوت بين درجات الكلام البليغ، وذلك فيما يرويه أنه: "قال عبيدُ اللهِ بن سالم لرؤبة: مُتْ يا أبا الجحافِ إذا شِئْتَ، قال: وكيف ذاك؟ قال: رأيتُ اليومَ عقبةَ بن رؤبة يُنشِدُ شعراً له أعجبني، قال: فقال رؤبة: نعم إنه ليقولُ، ولكن ليس

---

(١) من هؤلاء المحدثين الرافعي وسيد قطب والدكتور محمد عبد الله دراز وعبد الحميد الفراهي والدكتور محمد رجب البيومي وسعيد حوى والدكتور محمد أبو موسى والدكتور نور الدين عتر والدكتور مصطفى مسلم والدكتور فاضل السامرائي.

(٢) البيان والتبيين: الجاحظ، الناشر: مكتبة الخانجي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٣، د.ت: ٦٧/١.

(٣) العمدة في صناعة الشعر ونقده: ابن رشيق القيرواني (٤٦٣ هـ)، تحقيق: د. النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ٢٠٠٠: ٤١٢/١.

لشعره قِرَانٌ... يريد بقوله (قران) التشابه والموافقة، وقال عمر بن لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعرُ منك! قال: وبِمَ ذلك؟ قال: لأني أقول البيتَ وأخاه، وأنت تقولُ البيتَ وابنَ عمِّهِ"(١).

وبوحي من مقولات الجاحظ هذه أبان ابن رشيق القيرواني عن مبدأ جمالي عام يحكم الخطاب الأدبي وقوامه اهتمام البلغاء والفصحاء من العرب بقانون الاطراد والتناسب والترابط حتى جعلوه مقياساً لجودة الكلام ومعياراً يُحتكَم إليه لبلاغة القول، من ذلك تعريفات البلاغة في قولهم: "البلاغة أن يكون أوّلُ كلامِكَ يدلُّ على آخِرِهِ، وآخرُه يرتَبِطُ بأوّلِه، وقيل: البلاغةُ القوةُ على البيان، مع حُسْنِ النِّظام "(٢)، وقول بعضهم: "أبلغُ الكلامِ ما حَسُنَ إيجازُهُ، وقَلَّ مجازُهُ، وكثُرَ إعجازُهُ، وتناسبَتْ صدورُهُ وأَعْجَازُهُ"(٣)، كلُّ ذلك يدلّ على أن ابن رشيق القيرواني كان يتبنّى فكرة التناسب استناداً إلى دلائل معرفية يرجع عهدها إلى السليقة العربية القائمة على صفاء الذهن ورجاحة العقل ورهافة الشعور وبعد الخيال، واعتماداً على استقراء الواقع الأدبي منذ الجاهلية الى القرن الخامس الهجري حين يدعم الرأي بثقافته الأدبية الواسعة، والألطف من ذلك أن الأمر لديه لم يتوقف عند التنظير، وإنما أورد أبياتاً للحطيئة ولأبي ذؤيب الهذلي تصلح شواهد على إحكام البناء الشعري، ودقة السّبك في النص، وحسن الاطّراد بين المقاطع، بعدما مهّد لهما بما يشبه تقريراً استنتجه من استقراء الشعر العربي القديم، فأفاد أن "العربَ لا تنظرُ في أعطاف شعرها بأن تُجَنِّسَ، أو تطُابِقَ أو تُقابِلَ، فتتركَ لفظةً للفظةٍ، أو معنًى لمعنى، كما يفعل المحدثون، ولكن نَظَرُها في فصاحةِ الكلام وجَزالتِهِ، وبَسْطِ المعنى وإبرازِهِ، وإتقانِ بِنْيَةِ الشعر، وإحكام عَقْدِ القافيةِ، وتلاحمِ الكلامِ بعضِه ببعضٍ"(٤).

أما ابن أبي الإصبع المصري فيقول: "حُسْنُ النَّسَقِ مِنْ مَحاسنِ الكَلامِ، وهو أَنْ تأتيَ الكلماتُ مِن النَّثرِ والأَبياتُ مِن الشعر مُتَتَالياتٍ، مُتلاحِماتٍ تلاحُماً سَليماً مُستَحْسَناً، لا مَعيبَاً مُستَهْجَناً، والمُسْتَحسَنُ من ذلك أن يكون كلُّ بيتٍ إذا أُفرِد قامَ بنفسِهِ، واستقَلَّ مَعناه بِلَفظه، وإنْ رَدِفَهُ مُجَاوِرُه صَار بمنزلةِ البيتِ الواحدِ، بحيث يَعتقدُ السامعُ أَنّهما إذا انفصَلا تجزَّأ حسنُهما، ونقصَ كمالهُما، وتَقَسَّم معناهُما، وهما ليْسَا كذلك، بل حَالهُما في كَمَالِ الحُسْنِ وتمامِ المعنى مع الانفرادِ والافْتِراقِ

(١) البيان والتبيين: ١/ ٢٠٥ . ٢٠٦.

(٢) العمدة في صناعة الشعر ونقده: ٣٨٧/١.

(٣) المصدر نفسه: ١/ ٣٩٢.

(٤) العمدة في صناعة الشعر ونقده: ١/ ٢٠٨.

كحالهِما مع الائْتِئَامِ والاجتماعِ"[١]، يبدو بوضوح أن المصري كان متأثراً بكلام الجاحظ حتى كاد يعيد مصطلحاته وعباراته بلفظها ونصها، غير أنّه أتى بجديد المصطلح وأسهب في الشرح والتحديد المنطقي ووسّع دائرة تطبيقاته فكان من جملة شواهده نص قرآني في سورة هود.

أما المحدثون من النقاد العرب فقد استخدموا مصطلحات تمت بصلة إلى مصطلح المناسبة عند القدامى، من أمثال روح التركيب عند الرافعي، والنظام عند الفراهي، والكثرة والوحدة عند درّاز، والمنهج البنائي عند البستاني، والتفسير الموضوعي عند محمد الغزالي، والوحدة القرآنية عند سعيد حوى، والوحدة البنائية عند طه جابر العلواني، وتجاوب النظم عند محمد ابو موسى[٢]، ولعلّ من أبرزهم عناية بهذا المجال في ثوبه الأدبي الجديد هو سيد قطب، و"له اصطلاحاته الخاصة به في ذلك كلّه، فهو يستعمل مصطلح المحور والتناسق والأشواط والمقطع والدرس والحلقة والسياق والطابع والخط والايقاع والشخصية والملامح" [٣]، ووحدة الرسم وجوّ السورة والاتساق[٤].

وتتضح علاقة المناسبة بعلم البلاغة في أن بعض الأشكال البلاغية كمراعاة النظير، والتضاد، والاستطراد، وحسن التخلص[٥]، والاجمال والتفصيل، والاستئناف البياني، والالتفات، وحسن

---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري(٦٥٤هـ)، تحقيق: د. حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، ١٩٩٥: ٤٢٥.

(٢) ينظر على الترتيب: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، مطبعة المقتطف بمصر، ١٩٢٨: ٣٢٥، ودلائل النظام: عبد الحميد الفراهي، المطبعة الحميدية، ط١، ١٣٨٨ هـ : ١١. ١٦، والنبأ العظيم . نظرات جديدة في القرآن: محمد عبد الله درّاز، اعتنى به: عبد الحميد الدخاخني، دار طيبة، المملكة العربية السعودية، ط٢، ٢٠٠٠: ١٨٠، ١٩٥، والمنهج البنائي في التفسير: د. محمود البستاني، دار الهادي، بيروت، ط١، ٢٠٠١: ١٣ . ١٥، ونحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، دار الشروق، ط١٤، ٢٠١٦: ٥ . ٦، والأساس في التفسير: سعيد حوى: ١/٢٥، ٢٨، والوحدة البنائية للقرآن المجيد: طه جابر العلواني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٨: ١٣، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨: ٤٤، ٢٤١.

(٣) في علوم القرآن . عرضٌ ونقد وتحقيق: د. أحمد حسن فرحات، دار ابن كثير، سوريا، ط١، ٢٠١٨.: ٨٧.

(٤) ينظر: التصوير الفني: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٨، ٢٠٠٦: ١١٤، ١٢٢، ومشاهد القيامة، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٦، ٢٠٠٦: ٨٦، وفي ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٩، ١٩٨٠: ٦/٣٨٥١، ٣٨٨٣، ٣٩٢٦ .

(٥) الاتقان في علوم القرآن: ٢/ ٩٧٩. ٩٨١.

التعليل، والمذهب الكلامي، واللفّ والنشر، وحسن التقسيم، والاحتباك، والعكس والتبديل [١]، قد تضمن تحقيق التناسب بين الآيات في السورة الواحدة، بيد أن التداخل بينهما على المستوى المعرفي أعمق وأبعد يرجع عهده إلى نظرية النظم، ذلك أن عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) يرى أن الاعجاز سببه يعود: "لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب"[٢]، ومن هنا يكمننا القول: إذا كان النظم عند الجرجاني يبحث عن الانسجام بين المكونات اللغوية في حدود الجملة الواحدة ويرجع الاعجاز إليه، وإذا كان جهود علماء البلاغة في مبحث الفصل والوصل يكشف عن الانسجام في حدود الجملتين، فإن جهود علماء التفسير ودارسي الاعجاز يقدّم أفقاً معرفياً أرحب ومعطًى جمالياً أمتع في البحث عن علم المناسبة، لأن ذلك يعدّ نقلةً نوعية من دائرة الاقتطاع الجزئي إلى دائرة المقاربة الكلية في سياق المكونات الدلالية.

ولعلّ من تمام القول في هذا المقام أن يشار إلى أن مفهوم المناسبة يتقاطع مع مقولات في علم لغة النص، وتحديداً مع مفهوم التماسك والانسجام، إذ "قدّم مبحث المناسبة للدرس النصي منظومة علائقية يتجاور فيها الجزئي مع الكلي، والدلالي الموضوعي والصوتي الموسيقي مع الشكلي الخالص، أي إنها منظومة متعددة الجوانب، تستعين بكل ما من شأنه أن يسهم في سبك النص على المستوى اللغوي الخالص، وبكل ما من شأنه أن يحقق تماسك عالمه وتناغم مشاهده، وما من شكّ أن عملاً كهذا وليدُ فهمٍ نامٍ متطور للنص، كان بمقدوره . لو لم تحدث القطيعة المعرفية بين الدراسات الاسلامية والنقد الأدبي . أن يفتح أمام الدرس الأدبي آفاقاً معرفية لم يشهد لها نظيراً إلا في العقود الأخيرة"[٣]، يضاف إلى ذلك أن المادة العلمية التي طرحها القدامى في علم المناسبة يتجاوز النظر الجزئي إلى النظر الكلي في معاينة النص مع ربطه بالدلالات المركزية والهامشية، وهي مادة خِصبة "أسفرَتْ عن تبلور دقيقٍ لما يمكن عدُّه شبكةً اصطلاحية عُنِيت بكيفية انتاج الدلالة ووصفها، والتركيز على كيفية انتاج الدلالة يضعنا مباشرةً في قلب البنيوية، ولكن المادة التي طرحها علماء القرآن تجاوز حدود البحث في الكيفية التي أنتجت بها

---

(١) علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف اعجازه: ٧٤ . ٧٧.

(٢) دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٥، ٢٠٠٤: ٤٦.

(٣) علم المناسبة . مدخل إلى بلاغة الخطاب: د. محمد عبد الباسط عيد، مجلة عالم الفكر، المجلد ٤٢، العدد٣، يناير ـ مارس ٢٠١٤: ٧١.

الدلالة إلى البحث في الدلالة الناتجة نفسها، وهذا ما جعل صنيعهم في المستوى الأول بنيوياً، ولكنه في المستوى الثاني يمتدّ إلى ما بين أجزاء النص من تعالق، وما بينه وبين سياقه من تفاعل، وبذلك تتقاطع المناسبة مع البنيوية، لكنها تتجاوز ما أُخِذ على البنيوية من انغلاق وانعزال"(١).

***المحور الأول: بلاغة المناسبة الخارجية**

ومن بلاغة المناسبة ما يُلحَظ من أوجه العلاقة بين النص الكريم وسبب النزول، ذلك أن "العلاقات بين الآيات والسور تقتصر على نوعين: النوع الأول، علاقات داخلية ماثلة في المنطوق، وقد تكون مفهومة مستنتجة كالعموم والخصوص، والحسية والخيالية، أو مادية ملموسة كالعلاقات اللغوية والأسلوبية، وبهذا يتمكن المتلقي من إدراك العلاقة بين الآية الحالية وما يليها أو يسبقها، كما يمكنه معرفة علاقة أول سورة بآخرها، بناء على منهج محدد، النوع الثاني: علاقات خارجية ماثلة في التلازم بين النص اللغوي والمناسبة التاريخية التي تشكل مرجع النص، فإدراك المناسبة يقتضي معرفة السياق الخارجي وربط الآيات به، وهذا يعني أن على المتلقي أن يقوم بحركة مزدوجة، يتوازن فيها داخل النص وخارجه، كي يتمكن من ادراك المناسبة التي هي رهنٌ بهذين النوعين"(٢).

ولم أر من المفسرين من ربط النص الكريم . أعني سورة الكوثر . بسياقه التاريخي ربطاً دقيقاً مثلما ربطه الشيخ محمد عبده، إذ بدأ بذكر سبب النزول فقال: "كان المستهزئون من قريش . كالعاص بن وائل، وعقبة بن أبي معيط، وأبي لهب وأمثالهم، اذا رأوا أبناء النبي α يموتون يقولون: بُتِر محمد، أي لم يبق له ذكر في أولاده من بعده، ويعدون ذلك عيباً يلمزون به، وينفرون به الناس من اتباعه، وكانوا إذا رأوا ضعف المسلمين وفقرهم وقلتهم يستخفون بهم، ويهونون من أمرهم، ويعدون ذلك مغمزاً في الدين، ويأخذون القلة والضعف دليلاً على أن الدين ليس بحق، ولو كان حقاً لنشأ مع الغنى والقوة، شأن السفهاء مع الحق في كل زمان أو مكان غلب فيه الجهل، وكان المنافقون إذا رأوا ما فيه المؤمنون من الشدة والبأساء يمنون أنفسهم بغلبة إخوانهم القدماء من الجاحدين، وينتظرون السوء بالمسلمين لقلة عددهم وخلو أيديهم من المال، وكان الضعفاء .

---

(١) المصدر نفسه: ٤٦.

(٢)علم المناسبة . مدخل إلى بلاغة الخطاب: ٤٨.

من حديثي العهد بالاسلام من المؤمنين . تمرّ بنفوسهم خواطر السوء عندما تشتدّ عليهم حلقات الضيق، فأراد الله أن يمحص من نفوس هؤلاء ويكبت الآخرين، فأكّد الخبر لنبيه أن ما يخيلّه النظرُ القصيرُ قليلاً هو الكثيرُ البالغُ الغاية في الكثرة، ليؤكّد له الوعدَ بأنه هو الفائز، وأن متّبِعه هو الظافر، وأن عدوّه هو الخائبُ الأبتر الذي يمحى ذكره ويعفى أثره"(١).

ثم يذكر آراء قدامى المفسرين في أن المراد بالكوثر هو النبوة والدين الحق والهدى، أو العلم والحكمة، أو نور القلب، أو الخير الكثير والنعم الدنيوية والأخروية من فضائل وفواضل، أو حوض في المحشر، أو نهر في الجنة، ثم يمضي في بيان أوجه المناسبة بين ما ساقه من ملابسات التنزيل وما أورده من معاني الكوثر فيكشف الخيط الرابط بينهما بقوله: "فإذا جرينا على أن الكوثر هو النبوة أو العلم والحكمة أو نو القلب . وهو الهدى والرشاد . كان المعنى: إن الذي أعطيناك من هذه المواهب هو الكثير الذي لا يكثره شيء، وإن استقله الضعفاء أو استخفّ به الأعداء، وأيّ كثير يُعَدُّ كثيراً بالنسبة إلى الهدى والرشاد ومعرفة طريق السعادة؟ أليس الهدى منبع القوة والعزة، وهو الذي يحفظهما بعد حصولهما؟ إذ القوة والمال . إذا لم تكن معهما الهداية التي تقيم صاحبها على الطريق المستقيم . لا بقاء لهما، ومصيرهما إلى الزوال، ومصير كثرتهما إلى قلة، وكما قال سيدنا علي رضي الله عنه: العلم يحفظك وأنت تحفظ المال، ولا سبيل إلى حفظ المال إلا بالعلم، والجهل والضلال مضيعة كل شيء من جاه أو مال، وعلى أن الكوثر هو الخير الدنيوي والأخروي يكون المراد: إن هؤلاء المستعجلين بالسيئة يظنون أنك في قُلٍّ وضَعْف، وأن أغنياءهم وأقوياءهم في عزّ ونعمة، ولا يعلمون أننا قد أعطيناك من الخير الذي يعظم في نفوسهم مما لا يعرفون، ومن الخير المدخر لك في الغيب مما لا يدركون شيئاً كثيراً لا تحدّ كثرته"(٢)، هكذا يستعين الامام محمد عبده بعلم المناسبة ليشرح مدلول (الكوثر) على ضوئه شرحاً لا يحصره في نهر من الجنة او حوض في المحشر، وإطلاق لفظ (الكوثر) على العموم من غير تقييد أو تحديد في النص ينهض دليلاً قوياً على تأويله، لأن المناسبة وسبب النزول عند علماء التفسير يتعاقبان ليستكمل أحدهما الآخر في استكشاف المعنى واستشراف الجمال اللغوي.

---

(١) الأعمال الكاملة للامام الشيخ محمد عبده، تحقيق: د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٨: ٢/ ٥٤٢.

(٢)الأعمال الكاملة للامام الشيخ محمد عبده: ٥٤٤/٢.

وينقل جمال الدين القاسمي (١٣٣٢ هـ) عن ابن جني (٣٩٢ هـ) أنه اعتمد على فن المناسبة وعلاقته بسبب النزول في شرح معنى الكوثر، فقال: "ذهب إمام اللغة ابن جني إلى تأويل الكوثر بالذرية الكثيرة، وهو معنى بديع فيه مناسبة لسبب النزول"[١]، وربما تستمدّ هذه المناسبة شرعيتها من أن المرء يتوق إلى الذرية من الذكور لاعانته في شيخوخته، ولاغاثته في وقت الحاجة، ولنصرته اذا اعتُدِي عليه، وليبقى ذكُره من بعده موصولاً بأولاده، بيد أن مثل هذه الاعتبارات لا تصح في حق النبي α، لأن الله عزوجل تكفل بحمايته بقوله تعالى: "وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ"[٢]، وأن الله رفع ذكره حتى جعله مقرونا باسمه، قال تعالى"وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ"[٣]، ومن ثمّ فإن تأويل الكوثر بكثرة أتباعه في الدنيا يتناسب مع سبب نزول السورة ليبطل ما وجةّ اليه من اتهام ويزيد عليه، وهذا العدد الكثير من أتباعه في الدنيا يتناسق جمالياً مع الواردين حوضه ونهره يوم القيامة، وإذا كان أتباعه يتلهفون في الدنيا على نوره وحكمته وهديه لتسكن نفوسهم وتهدأ أرواحهم، فإنهم في الآخرة يتزاحمون كذلك على حوضه ونهره ليذهب عطشهم ويزول ظمأهم.

ومن معاني البتر في اللغة قَطْعُ الرَّحِم، يقال: بَتَرَ فلانٌ رحِمَهُ: اذا قطَعَها، ورجلٌ أُبَاتِر: قاطِعُ الرَّحِم[٤]، وإلى هذا المدلول يوجّه عبد الحميد الفراهيدي (١٣٤٩ هـ) تأويل لفظ (الأبتر) ليعقد تناسباً بين النص الكريم وسبب النزول فيقرّر في وضوح سافر "أن النبي α بعدما هاجر إلى المدينة ظنَّ قريشٌ أنّه بَتَرَ رَحِمَهُ، وترَكَ أكرمَ بيتِ العربِ، وحُرِمَ ماكان له من شرفِ ولاية الكعبةِ وجوارها، فصار بزعمهم كشَجَرٍ قُطِعَ عن أصله، فيُوشِك أن يضمحَلَّ أمرُهُ ويتضاءَل قدرُه، فبشَّرَهُ اللهُ بالبركةِ والكثرة والفتحِ والنصرة، وأنه باطلٌ ما زعم عدوُّه، بل إنّ عدوَّه لهو المقطوع المخذولُ،

---

(١) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، ١٩٥٧: ٦٢٧٨، وينظر: الفسر شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي: صنعة ابن جني (٣٩٢ هـ)، تحقيق: د. رضا رجب، دار الينابيع، دمشق، ط١، ٢٠٠٤: ٥١٩/١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٣) سورة الشرح، الآية: ٤.

(٤) ينظر: لسان العرب، ابن منظور (٧١١ هـ)، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، د.ت: ٢٠٥/١، ومفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (٥٠٢ هـ)، تحقيق: عدنان صفوان داودي، دار القلم ، دمشق، ط٥، ٢٠١١: ١٠٧.

ولمّا كان هذا الكلام ردّاً لزعمهم كان فيه تعريض إلى أن عدوه هو ليُسلَبُ الشرفَ الذي يتباهى به، فصار إخباراً بفتح مكة"(١).

تلك آراءٌ لا تخلو من الوجاهة في بيان وجوه الاتصال بين سورة الكوثر وسبب نزولها، وهي آراء مبنية على "أن للنص القرآني وجوداً أزلياً سابقاً على وجوده على الأرض منجّماً، وما كان التنجيم نفسه إلا ضرباً من تناسب الدلالة الكريمة مع الوقائع المختلفة لِعِلَلٍ ترتبط بأحوال المتلقين وقدرتهم على تقبل الأوامر والنواهي، ومن الضروري أن يفضي هذا النظر إلى القول بتماسك النص وترابطه"(٢).

ومن بلاغة المناسبة الخارجية ما نراه من التناسب بين السور على أساس التنزيل وعلى أساس الترتيب، لقد سبق القول أن سورة الكوثر في تاريخ نزولها مسبوقة بسورة العاديات ومتبوعة بسورة التكاثر، والمناسبة بين جارتيها في التنزيل جِدُّ واضحة، إذ "فى العاديات حكمٌ على الإنسان بأنه كافر بنعمة ربه لا يشكرها وأنه شاهد على نفسه بذلك وأنه مولَعٌ بحبِّ الخيرِ العاجلِ راءٍ فيه كلَّ أسبابِ السعادةِ والحياةِ المرضية، فجاءت الكوثر تقول للرسول α: إن اللهَ أعطاك خيراً كثيراً، فاعبُدْهُ وانحَرْ وتصدَّقْ، فإنك لستَ مثلَهُم تُعطَى فتبطر وتجمع المالَ وتحبُّ منه المزيدَ، لكنِ اشكُرْ نعمةَ ربكَ بالطاعة والإنفاق، أليست هذه أوثق رابطة وأنسب علاقة؟"(٣)، والعاديات تبدأ بالقسم ، والكوثر تبدأ بالتوكيد الجاري مجرى القسم، وفي العاديات أقسم بخيول الجهاد تأكيداً على فضلها ، وفي الكوثر دعوةٌ إلى نحر الابل إقراراً بالشكر، وتتجانس السورتان في الاشارة إلى أمر المعاد، وفي االانتهاء بالتهديد.

وأما علاقتها بسورة التكاثر فهي أن "الشانئَ في سورة الكوثر يقولُ: إن محمداً α صُنْبُورٌ ليس له ولد ولا عقب، وهم يفتخرون بما لديهم من مالٍ، وما لهم من عِتْرَةٍ وأولاد وأحفاد، يتكاثرون فيما بينهم بِعدَدِ رجالهم وفُرسانِهم، ذلك عندهم مقياسُ الفضيلة: مالٌ وولدٌ، فجاءت هذه السورةُ تبيّن لهم ضلال ما هُمْ فيه، وأنَّ ما عندهم من الولد والمال لاهٍ لَهُم عن عمل الخير، شغلَهم حتى ماتوا، أو شغلَهم التكاثرُ بعَدِّ الرجالِ حتى ذهبُوا يَعدُّون مَنْ ماتَ منهم، سيكونُ ذلك حسرةً عليهم يومَ القيامة،

---

(١) نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، : ٢/ ٨٢٤.

(٢) علم المناسبة . مدخل إلى بلاغة الخطاب: ٤٧ . ٤٨.

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: د. عبد العظيم ابراهيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٢: ٤١٦/١.

أما محمد α الذي يعيرونه بعدم العقبِ، فقد أعطاه اللّه خيراً كثيراً، فهو فيه لربِّه طائعٌ غيرُ شحيحٍ ولا بخيلٍ، ولا هو شاغلٌ له عن عمل الخير من طاعاتٍ للّه كالصلاة والانفاق والنحر، أوَ ليست هذه رابطة جامعة وثَّقت عُرى الجار بالجارِ، فبدتا – أي السورتان – كأنهما وحدة واحدة"(١).

يضاف إلى ذلك أن الكوثر تستهلّ بالامتنان بالكثرة، في حين تبدأ التكاثر بالتوبيخ على التكاثر، فالأول يهدي المرءَ إلى الطاعة والشكر، والثاني يقود الانسانَ إلى التلهّي عن ذكر اللّه وطاعته، وسورة الكوثر اختتمت بالتهديد بالاستئصال في صورة من الكلام المؤكد، وكذلك سورة التكاثر انتهت بالتهديد بالمحاسبة على التكاثر بالنعيم الملهي في صورة من القسم المؤكد، هكذا يبدو أن السورتين تتناسبان في خيوط من التجانس والتقاطع في طرح الأفكار والمعاني وفي كيفية البناء والأسلوب والشكل الفني، ذلك "أن المناسبة لا تخلص إلى جانب السَّبك دون الحبك، فهي كما تنهضُ على بُعدٍ لغوي ظاهر، تنهض أيضاً على بُعْدٍ معنوي باطن، والوجهان معاً يضمنان للنص ترابط سطحه وانسجام عالمه"(٢).

أما المناسبة الخارجية على أساس الترتيب فمبني على أن ترتيب السور القرآنية توقيفي كان بأمر من النبي α، واليه ذهب جمهور العلماء(٣)، نقل السيوطي عن ولي الدين الملَّويّ أنه قال: "فَالْمُصْحَفُ عَلَى وَفْقِ مَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مرتبةٌ سورُهُ كلُّها وآياتُه بِالتَّوْقِيفِ، كَمَا أُنْزِلَ جُمْلَةً إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ، وَمِنَ الْمُعْجِزِ الْبَيِّنِ أُسْلُوبُهُ وَنَظْمُهُ الْبَاهِرُ، وَالَّذِي يَنْبَغِي فِي كُلِّ آيَةٍ أَنْ يُبْحَثَ أَوَّلُ كُلِّ شَيْءٍ عَنْ كَوْنِهَا مُكَمِّلَةً لِمَا قَبْلَهَا أَوْ مُسْتَقِلَّةً؛ ثُمَّ الْمُسْتَقِلَّةُ مَا وَجْهُ مُنَاسَبَتِهَا لِمَا قَبْلَهَا؟ فَفِي ذَلِكَ عِلْمٌ جَمٌّ، وَهَكَذَا فِي السُّوَرِ يُطْلَبُ وَجْهُ اتِّصَالِهَا بِمَا قَبْلَهَا وَمَا سِيقَتْ لَهُ"(٤)، وعليه فإن سورة الكوثر شديدة الاتصال بسورة الماعون التي سبقتها في ترتيب المصحف، ووجه المناسبة بينهما . كما يوضحها فخر الدين الرازي . هي أن سورة الكوثر كالمقابلة لسورة الماعون، لأن في سورة الماعون وصف اللّه المنافق بأربعة أمور: البخل، وترك الصلاة، والرياء، ومنع الزكاة، فذكر عزَّوجلَّ في

(١) المصدر نفسه: ١/ ٤١٧.
(٢) علم المناسبة . مدخل إلى بلاغة الخطاب: ٥٦.
(٣) ينظر: روح المعاني: ١/١٥٢، وترتيب سور القرآن، د. طه عابدين طه، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، العدد ٩، السنة الخامسة والسادسة: ٣٢، وعلم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف اعجازه: ٨.٧، و مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط٧، ٢٠٠٩: ٧٨.
(٤) الاتقان في علوم القرآن: ٢/ ٩٧٧.

سورة الكوثر في مقابلة البخلِ العطاءَ الكثيرَ في قوله: (إنّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)، وكأنه يقول: فأعطِ أنت الكثير ولا تبخلْ، وذكر في مقابلة تركِ الصلاةِ المحافظةَ عليها في قوله: (فَصَلِّ)، أي دُمْ على الصلاة وحافِظْ عليها، وذكر في مقابلة الرياءِ الاخلاصَ في قوله: (لِرَبِّكَ)، أي ائتِ بالصلاة لرضا ربك، لا لمراءاة الناس، وذكر في مقابلة منعِ الماعونِ التصدقَ بلحوم الأضاحي في قوله: (وَانْحَرْ)[(١)].

ويقابل التكذيبُ بالدين في سورة الماعون: (أَرَأَيْتَ الّذِي يُكَذِّبُ بِالّدِينِ) الاشارةَ الضمنية إلى يوم القيامة في قوله تعالى في سورة الكوثر: (إنّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)، لأن من معاني الكوثر في كتب التفسير أنه حوض في المحشر أو نهر في الجنة، وهذا يستلزم اثبات يوم القيامة وتصديقه، يقول شهاب الدين الخفاجي (١٠٦٩ هـ): سورة الكوثر متصلة بسورة الماعون، وقد ذُكِر في هذه ما يقابل في تلك، فالكوثر بمعنى الخير الكثير الشامل للأخروي يقابل التكذيبَ بيوم الدين، لما فيه من إثباته ضمناً، إذا كان الكوثر بمعنى الحوض أو النهر[(٢)]، وكأني بالشهاب الخفاجي يستدرك على الرازي ما فاته من ذكر المقابلة بين التكذيب بالدين المصرَّح به في الماعون، والتصديق به الوارد ضمناً في الكوثر.

ويرى أحمد بن الزبير الثقفي (٧٠٨ هـ) أن الصلة بين الماعون والكوثر تتمثل في أن الأولى صورة للاستكثار من الدنيا وزينتها، وأن الثانية صورة للخير العميم في الآخرة، يقول:" لمّا نهى عبادَه عما يلتذُّ به مَنْ أرادَ الدنيا وزينتَها من الإكثار والكبرِ والتغررِ بالمال والجاهِ وطلبِ الدنيا، أَتبعَ ذلك بما منحَ نبيَّهُ مما هو خيرٌ مما يجمَعُون، وهو الكوثرُ، وهو الخيرُ الكثيرُ، ومنه الحوضُ الذي ترِدُه أمّتُه في القيامة ...فقد اضمحَلَّ في جانبِ نعمةِ الكوثرِ الذى أُوتِي كلُّ ما ذكرَهُ تعالى في كتابِهِ من نعيمِ أهلِ الدنيا، وتَمَكُّنِ مَنْ تَمَكَّنَ منهم، وهذا أحدُ موجباتِ تأخيرِ هذه السورة، فلم يقعْ بعدها ذِكرُ شيءٍ مِن نعيمِ الدنيا ولا ذُكِرَ أحدُ المُتَمَتِّعينَ بها، لانقضاءِ هذا الغرضِ وتمامِه، وسورةُ الدينِ آخرُ ما تضمَّنَ الإشارةَ إلى شيءٍ من ذلك كما تقدَّم من تمهيد إشارتها، وتبيَّنَ بهذا

(١) ينظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ١٦/ ٣٤٢، والبحر المحيط، أبو حيان الأندلسي(٧٤٥هـ): تحقيق: محمد رضوان عرقسوسي، محمد معتز كريم الدين، محمد أنس الخُن، دار الرسالة العالمية، ط١، سوريا، ٢٠١٥: ٢١/ ٤٩٩.

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، شهاب الدين الخفاجي (١٠٦٩هـ)، دار صادر – بيروت، د. ت: ٥٧٩/٩.

وجهُ تَعقِيبِها"[١]، وعليه فإن العلاقة بينهما في نظره علاقة التضاد، لكن من غير الوجهة التي أشار إليها فخر الدين الرازي، وسرّ موقع الكوثر في ترتيب المصحف أنه لم يعد بعدها ذكر شيئ من الدنيا، وكأن في موضعها إشارة إلى أن ما سبق ذكره من الدنيا وملذاتها لا تساوي شيئاً بجانب ذكر الكوثر وما يتضمنه من أمر النبوة والهدى والرشاد والحوض والنصر، فكان في التعقيب بها مسك الختام ولذة التفوق.

ويذكر البقاعي وجوهاً أخرى لبلاغة المناسبة بين الماعون والكوثر عندما يقول: "لما كانت سورة الدين بإفصاحِها ناهيةً عن مساوىء الأخلاق، كانت بإفهامها داعيةً إلى معالي الشيم، فجاءت الكوثرُ لذلك، وكانت الدينُ قد خُتِمَت بأبخل البخلاء وأدنى الأخلاقِ (المنع) تنفيراً من البخل ومما جرَّه من التكذيبِ، فابتدئت الكوثر بأجود الجود (العطاء) لأشرفِ الخلائق ترغيباً فيه وندباً إليه، فكان كأنه قيل: أنت يا خير الخلق غيرُ متلبِّسٍ بشيءٍ مما نهت عنه تلك المختتمة بمنع الماعون"[٢]، وكأن البقاعي يريد أن يقول: إن العلاقة بينهما علاقة المنطوق والمفهوم، فالأول يحمل في باطنه جذور الثاني بمفهومه، والثاني يكشف عن قبح الصفات في الأول بمنطوقه عن طريق التضاد، لأن وضع الشيء بجانب ضده يزيده بياناً ووضوحاً، ولأمرٍ ما أكّد البلاغيون أن "من صفات الأدب الجيد تلاحم أجزائه وائتلاف ألفاظه حتى كأنَّ الكلام بأسره من حُسنِ الجوار وشدّة التلاحم كلمةٌ واحدةٌ، وحتى كأنَّ الكلمةَ بأسرها حرفٌ واحدٌ، وكما يتمُّ هذا التلاحمُ عن طريق التشابه يتمُّ كذلك عن طريق التضاد، لأن المعانيَ يستدعي بعضُها بعضاً، فمنها ما يستدعِي شبيهَه، ومنها ما يستدعي مقابلَه، بل إنّ الضدَّ أكثرُ خُطوراً على البالِ من الشبيه وأوضحُ في الدلالة على المعنى منه"[٣].

ومِن المحدثين مَنْ يبحث عن التناسب بينهما على أساس مقصد السورتين وما بينهما من تلازم الغاية والوسيلة، ذلك أن مقصد سورة الماعون "أن الأَمْنَيْن الغذائي والاجتماعي قائمان على عبادة

(١) البرهان في تناسب سور القرآن، أحمد بن ابراهيم بن زبير الثقفي (٧٠٨ هـ)، تحقيق: د. سعيد جمعة الفلاح، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٣١ هـ: ٢٢٠ . ٢٢١.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٥٤٧/٨.

(٣) في البلاغة العربية . علم البديع: د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت . لبنان، د.ت: ٩٠ . ٩١.

اللّه وحده، ثم على التراحم والتكافل الاجتماعي"[١]، ولا شك انّ استخلاص هذا المقصد منظور اليه من اتصال سورة الماعون بسورة قريش من قبلها، ومن ثمّ جاءت سورة الكوثر لبيان الوسائل التي من شأنها تمكين هذين الأمنين والمحافظة عليهما، وكأن سورة الكوثر تقول: "إذا أردتم بلوغ الغاية في الحفاظ على الأمنين والزيادة فيهما فعليكم أن تزدادوا صلتكم بالله تعالى وإخلاصاً بالإكثار من الأعمال القلبية، وأظهرُها الإخلاصُ للّه تعالى (لِرَبِّكَ)، ثم الإكثارُ من الأعمال البدنية، وأظهرُها الصلاةُ ليتحققَ الأمنُ النفسي، ثم الإكثارُ من العباداتِ المالية، وأفضلُها النحرُ تقرباً إلى اللّه تعالى، إذ يجتمع فيه أفضلُ العباداتِ الماليةِ مع الإحسانِ إلى الناس في قُوتِهِم ليتحقَّقَ الأمنُ الغذائي (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)، فالجزاءُ من جنسِ العمل، فَمنِ انتقصكم بعدها فمصيرُهُ القطعُ والبترُ وفقدانُ الأَمْنَيْنِ"[٢].

ويرى فخر الدين الرازي أن أهمية موقع سورة الكوثر في ترتيب المصحف ليس في قوة اتصالها بسورة الماعون فحسب، وإنما في اتصالها كذلك بعدة سور تسبقها، فهي . أي سورة الكوثر . كالنتمة لما قبلها من السور، وكالأصل لما بعدها من السور، وبيان ذلك أن اللّه سبحانه ذكر في سورة (الضحى)، و(الشرح)، و(التين)، و(العلق)، و(والقدر)، و(البينة)، و(الزلزلة)، و(العاديات)، و(القارعة)، و(التكاثر)، و(العصر)، و(الهمزة)، و(الفيل)، و(قريش)، و(الماعون)، من المناقب والفضائل ما يدلّ على شرف النبي α وأمته، ولمّا شرّفه في هذه السور من هذه الوجوه العظيمة قال بعدها: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ)، أي إنا أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة المذكورة في السور المتقدمة التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها، فاشْتَغِلْ أنت بعبادة هذا الرب، وبارشاد عباده إلى ما هو لأصلح لهم... فثبتَ أن هذه السورة كالنتمة لما قبلها من السور [٣].

وقريب من صنيع الفخر الرازي ما اهتدى إليه العلّامة الفراهي بذوقه الأدبي ومنطقه الفطري من علاقة سورة الكوثر بسورة الفيل التي تفصلها عنها سورتا قريش والماعون على أساس ثنائية النعمة والنقمة، فيقول: "إنها . أي سورة الفيل . نزلت في الذين كبرت خيانتهم في ولاية الكعبة، لمّا أنهم

(١) جنى القلب الهايم في مقاصد السور ومحاورها: عدنان عبد القادر، دار كنوز اشبيليا، الرياض، ط١، ٢٠١٤: ٥٤٢.

(٢) المصدر نفسه: ٥٤٣.

(٣) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ١٦/ ٣٤٣ . ٣٤٤.

أفسدوا الحجّ ومناسكها وأبطلوا حقيقة الصلاة والنحر بإبطال التوحيد والمواساة بالمساكين، فباؤوا بالويل واللعنة، وحُقَّ لهم أن يَسلُبهم اللهُ هذا الخيرَ ويعطيه من استحقه حسب سنته، وكان الله تعالى ينزع ولاية الكعبة عن الخائنين، فبهذه السورة . أي سورة الكوثر . بشّر الله تعالى نبيَّه بأنه اصطفاه وأمّته لولاية بيته المحرَّم ومسكنِ خليله وذريته التي يبارك بها الأمم... فموضع هذه السورة بالتي قبلها كموقع ذكر النعمة بعد النقمة، والعطاء بعد السلب، والمستخلَفين بعد المهلكين، وذلك أسلوب عام في القرآن"(١).

وبين سورة الكوثر وسورة الضحى التي تسبقها بعدة سور في ترتيب المصحف اتصال وثيق في أنهما تخلصان للنبي α وتسريان عنه الهمَّ والحزن، وتخففان عنه الضغوط النفسية والمادية بايعاده ما يرضيه من خير الدنيا ونعيم الآخرة، وبالنصر على أعدائه، فإذا كانت سورة الضحى تشبه الوعد بالخير والاستبشار به، فإنَّ سورة الكوثر إنجاز لهذا الوعد وتحقيق(٢).

ومثل هذا الربط بين السور لا بين السورتين المتتاليتين فحسب وليدُ تفكيرٍ واسعٍ ينظر إلى القرآن الكريم على أنه بناءٌ متكاملٌ يحكمه نظام دقيق فيه كلُّ خصائص النص الكامل من التماسك والترابط حتى بدا لقارئه كالكلمة الواحدة ترتيباً وتنسيقاً، وهذا يؤكد الحقيقة التي ترى "أنّ ترتيب السور في السياق الترتيلي الذي هو بين دفَّتى المصحف الذي عليه الأمة جمعاء إنما هو مظهرٌ من مظاهر إعجازه البياني، وأنَّ تناسبَه المعجز ليس بالمحصور في تناسب نظمه التركيبي الماثل في بناء الجملة، بل هو أيضاً متحقق على كماله في نظمه الترتيبي الماثل في علاقات الجمل بعضها ببعض في بناء المعقد، وعلاقات المعاقد بعضها ببعض في بناء السورة، وعلاقات السور بعضها ببعض في بناء البيان القرآني العظيم كلّه مفتتحاً بسورة الفاتحة ومختتماً بسورة الناس"(٣).

أما علاقة سورة الكوثر بسورة الكافرون فهي أنه لما ثبت أن مخاطبة اللّه رسوله α بقوله: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ) مما يزيل الخوفَ عن القلب، والجبنَ عن النفس، فكانت هذه السورة كالأصل لما بعدها، فقدَّم هذه السورةَ على سورة الكافرون حتى يمكنه الاشتغال بذلك التكليف الشاق، وإظهار

(١) نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: ٧٧٩/٢.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٣٩٨٧/٦، ونظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: ٢/ ٧٩٥، وعلى طريق التفسير البياني، السامرائي، دار الفكر ناشرون، الأردن، ط١، ٢٠١١: ٨٢/١.

(٣) الامام البقاعي جهاده ومنهاج تأويله بلاغة القرآن، د. محمود توفيق محمد سعد، مصر، ط١، ١٤٢٤ هـ: ١٦٨.

البراءة من معبودات الكافرين جميعاً [١]بقوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)، ومفاد ذلك أن سورة الكوثر بما تضمنته من البشارة لصاحب الرسالة بالخير الكثير ومن التهديد لأعدائه بالبتر والقطع تمثّل جرعةً وقائية ومناعة نفسية تمهّد للقيام بمهمة إعلان البراءة من معبودات الكفار، ذلك أن الطعن في معتقداتهم والانفصال النهائي الذي لا يرجى معه اتصال يثير مزيداً من عداوتهم وغضبهم، فكان النبي α يحتاج إلى مزيد من تقوية القلب وثبات النفس.

وليس ببعيد من تعليل الرازي ما ذكره الفراهي في مجيء سورة الكافرون عقِبَ سورة الكوثر عندما قال: "ولمّا كانت السورة التالية . أي الكافرون . في إعلان الهجرة من جوار بيته حَسُنَ في نظم الكلام تقديمُ سورةِ التبشير والتسلية، ليدلَّ بنظمه على أن اللّه تعالى قضى باليُسرِ قبل العُسر، وإن كان وقوعه بعدها، فترى أن إعلان الهجرة الذي تضمنته سورة الكافرون وُضِع بين سورتي التبشير، أعني سورة الكوثر وسورة النصر، ثمّ لما كانت هذه السورة بشارةً للنبي α بكثرة أحِبّائه، وبقطع أعدائه عن بركات الكعبة جاءت سورة الكافرون بياناً لأصل هذه المقاطعة، وهو التوحيد الذي بُنِي عليه هذا بيت اللّه الواحد"[٢]، وإنما سبقت سورةُ الكوثرِ سورةَ الكافرون في ترتيب المصحف وفي واقع التنزيل [٣]، لأنّ سورة الكوثر ببشراها العاجلة من شأنها أن تملأ القلب بالرضى، وتقوّي الارادة، وتجعل النفس تستخفّ بالصِّعاب ولا تخاف مواجهة الأعداء، إذ ترى النصر من قريب، وتنتظر الظفر بالموعود، فيهون عليها التصريح بالمقاطعة وإعلان البراءة، فبهذا نفهم "أنّ في سورة الكوثر بشارةً لظهور هذه الأمة وسموِّ أمرها وجمع شملها، وحكماً على قطع عدوّها من الشجرة المباركة للإسلام، فأتبعها بهذه السورة . أي الكافرون . التي تُعلِن بقطع حِبالِ المودّةِ من الكُفّار، وتركِهم مقطوعين عن الأمة المباركة"[٤].

ومن وجوه الاتصال بينهما أن اللّه سبحانه وتعالى "لمّا أخبره في الكوثر أن العريقَ في شنآنه عدمٌ، وجبَ أن يُعرِض عنه ويُقبِل بكليته على مَن أنعَمَ عليه بذلك، فقال معلماً له ما يقول ويفعل (قل)، ولمّا كان شانئه أعرق الَخْلقِ في الضلال والبُعد من الخير، قال منادِياً له بأداة البُعْد وإن

---

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ١٦/ ٣٤٥.

(٢) نظام القرآن وتأويل الفرقان بالقرقان: ٢/٧٧٩ . ٧٨٠.

(٣) عُدَّت سورة الكوثر الخامسة عشرة في عِداد نزول السور، في حين عُدَّت سورة الكافرون الثامنة عشرة في عداد نزول السور، ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٠٢، ٥٠٨.

(٤) نظام القرآن وتأويل الفرقان بالقرقان: ٢/٨٤١.

كان حاضراً،معبِّراً بالوصف المؤذِنِ بالرسوخ (يا أَيُّهَا الكَافِرُونَ)، أي الذين قد حُكِم بثباتهم على الكفر، فلا انفكاك لهم عنه"[١]، ولا شكّ أن الانسان بطبعه يُقبِل على من أحسن إليه ويُعرِض عمن أساء إليه، فاللّه أكرم رسوله α بإضافته إليه وبفيض عطائه ورفعة ذكره، وأعداؤه أعلنوا ضده حرباً نفسية كانت البيئة العربية آنذاك تستجيب لصداها.

ولخاتمة سورة الكوثر النصيب الأوفر في توطيد صلتها بسورة الكافرون، حيث "جاءت خاتمة سورة الكوثر بقوله: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ) لتبين بأن هناك بتراً في الدنيا وبتراً في الآخرة ، ووصلاً في الدنيا ووصلاً في الآخرة، فهناك مبتور وموصول، إذن هما فريقان، والفريقان لا يمكن أن يتحد منهجهما في الحياة، لا في تصور العقيدة ولا في منهج التفكير ولا في المبادئ، ولذلك ساق اللّه عزوجل سورة الكافرون بعد هذه السورة لتعبّر عن المعنى الذي نعبر عنه حديثاً في العرف الدبلوماسي بقطع العلاقات"[٢]، وجمال هذه اللفتة من الشعراوي يكمن في نقل المصطلح السياسي إلى مجال الدراسات القرآنية لبيان المناسبة بين السورتين في إطار تذوق فني مثير، وهذه المقاطعة في العقيدة وفي العبادة وفي السلوك تتسع حتى تأخذ طابع الاستقلال والتميّز لكلا الفريقين، حيث نجد "في سورة الكوثر بشارة لظهور هذه الأمة وسموّ أمرها وجمع شملها، وحُكماً على قطع عدوّها من الشجرة المباركة للاسلام، فأتبعها بهذه السورة التي تعلن بقطع حبال المودة من الكفار، وتركهم مقطوعين عن الأمة المباركة"[٣]

يقول السيوطي في وجه اتصال سورة الكوثر بسورة الكافرون: "أنه تعالى لما قال: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ) أمره أن يخاطب الكافرين بأنه لا يعبد إلا ربه، ولا يعبد ما يعبدون، وبالغ في ذلك فكرر، وانفصل منهم على أن لهم دينهم وله دينه"[٤]، وتقرير الآلوسي عن سورة الكافرون قريب من السيوطي إذ يقول: "وفيها . أي في الكافرون . إعلانُ ما فُهِمَ مما قبلها من الأمر بإخلاص العبادة له عزَّ وجلَّ،

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٥٥٤/٨.

(٢) تفسير سورة الماعون، والكوثر، والكافرون: محمد متولي الشعراوي، دار بو سلامة للطباعة، تونس، ط٣، ١٩٨٣: ٤٧.

(٣) نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: ٨٤١.

(٤) تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور: جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العليمة، لبنان، ط١، ١٩٨٦ : ١٤٥، وينظر: التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم: د. فاضل السامرائي، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٢ هـ : ١٨٨.

ويكفي ذلك في المناسبة بينهما"[١]، ويوسّع سعيد حوى رقعة المناسبة بينهما أكثر من العبادة حتى يشمل المفاصلة في الشعائر وفي الوجدان فيتحقق تميّز الشخصية الايمانية، فيقول: "وصلة سورة الكافرون بما قبلها واضحة، فقد عرفنا من سورة الكوثر أن هناك شانئين ومبغضين لرسول اللّه α وهم الكافرون، وتأتي سورة الكافرون لتأمر رسول اللّه α أن يعلن مفاصلته في عبادته ودينه للكافرين إعلاماً أنه لا يبالي بهم، وتوضيحاً لكونه على الحق، وفي سورة الكوثر أمرَ اللّه عزَّ وجلَّ رسوله α بنوعين من العبادة يختلف فيهما المسلمون عن غيرهم من الناس، وتأتي سورة الكافرون لتأمر رسول اللّه α أن يعلن أن الهه الذي يعبده هو اللّه وحده، وأنه لن يعبد . حالاً أو استقبالاً . آلهة الكافرين والمشركين، وأن دينه متميز عن كل دين، وصلة ذلك بسورة الكوثر لا تخفى"[٢].

وما أشار إليه السيوطي والآلوسي من وجه الصلة بين السورتين نظر جزئي في المناسبة بُني على ربط وسط سورة الكوثر فقط بالآية الثانية فقط في سورة الكافرون مع أن المناسبة بين السور يحتاج إلى النظر الكلي في مقاصد السورتين، وقد يمتد هذا النظر الفسيح الى عدة سور لا إلى سورتين متجاورتين فحسب، وسبقَ القولُ أن في سورة قريش المسبوقة على سورة الكوثر امتناناً بالأمن العسكري والأمن الغذائي، وأن الاستكثار من الاتصال باللّه والتكافل الاجتماعي الذين تفصح عنهما سورة الكوثر يضمنان الحفاظ على هذين الأمنين ويجلبان المزيد، ثمّ جاءت سورة الكافرون حتى "لا يظنّ ظانٌّ أن الأمن الغذائي والاجتماعي، أو الاستقرار السياسي والاقتصادي يتحققان بمداهنة الكفار والتوكل عليهم والتذبذب بين أهل الإيمان وأهل الكفر، إنما يتحققان بكمال العبودية لله وكمال البراءة من دين الكفار، فترسم حينئذٍ الحدود وتتضح، فلا تتنازلوا عن شيء من توحيد اللّه، ولا تداهنوا فيه، لا في الحال (لا أعبد ما تعبدون)، ولا في المآل (ولا أنا عابدٌ ما عبدتم)، حينئذٍ يتكفل اللّه تعالى لكم بالأمنين ويستقر الوضع السياسي والاقتصادي"[٣].

وفي الاتجاه ذاته يربط الدكتور محمد عبد اللّه دراز بذوقه البلاغي وحسه الجمالي بين السور القصار التي سبقت سورة الكوثر والسور التي تلتها فيقول: "أما السور السبع القصار فإنها كلَّها

---

(١) روح المعاني: ٣٧٤/٢٩.

(٢) الأساس في التفسير: ٦ /٥٨١.

(٣) جنى القلب الهايم في مقاصد السور ومحاورها: ٥٤٥.

تحمل طابع الختم والانهاء، فانظُرْ إلى سورة الكوثر حين قضي الوحي مفصلاً كيف التفتت إليه في نظرة جامعة لتعرِّف الرسولَ α بمقدار ما انطوى عليه القرآن من النعمة الكبرى والخير العميم: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ)، فكان ذلك أحسنَ فذلكةٍ يُختَم بها كتاب ويُنوَّه بشأنه، ولما كان تعريف الرسول α بنفاسة ما وصل إلى يديه ليس امتناناً عليه فحسب، بل هو تحريضٌ خفيٌ له على الحرصِ على تلك الهدية، لا جرم أن جاءت السورة التي تليها مقفية على هذا التفريط بالأمر المؤكد بالاستمساك بهذا الدين، وعدم التحول عنه مهما لجّ المعاندون: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)، وكان طبيعياً بعد هذا الأمر والنهي، وبعد تقسيم الناس هكذا إلى معسكرين منفصلين في شأن الدين، أن تقرر عاقبة كل منهما، فأشارت إحدى السورتين التاليتين عاقبة المتقين المستمسكين بما جاءهم: (إذا جَاءَ نَصْرُ اللّهِ وَالفَتْحُ)، وأشارت الأخرى إلى عاقبة أعدائهم وشانئيهم: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)، ولم يكن هذا الأخير إلا تطبيقاً لقاعدة كلية مهّدت له آنفاً في قوله تعالى: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ)، ثمَّ كان مِسْك الختام أن بُورِك هذا الكتابُ وحُصِّن التحصين السماوي المنيع، وذلك بطلب الالتجاء إلى الاله الأحد الصمد في أن يحفظ للعالم هذه الهدية العظمى، برغم حسد الحاسدين، ووسوسة الموسوسين، الذين يُلقون الشبهاتِ في صدور الناس ليصدّوهم عن سبيل اللّه"[١].

ومثلُ هذا التوفيق في التحليل من ثمار التدبر العميق في كتاب اللّه ومن بوادر التحليل النصي الذي قوامه على مفهوم التماسك في الكلام، "وإذا كان انسجام نصٍ ما ينهض بالضرورة على منظومةٍ من العلاقات المفهومة أو التي يمكن فهمها بين جزئياته وكلياته، فمن الضروري . ونحن إزاء نصٍ معجزٍ في الأساس بنظمه وعلى هذا أجمع الدارسون . أن يكون كلُّ دالٍّ فيه منسجماً مع ما يجاوره مناسباً له، بما يفضي إلى تناسب كلّ آية من آياته في ذاتها أولاً، وفي علاقتها بغيرها من الآيات ثانياً، وما يؤدي إليه ذلك من تناسب كلّ سورة في ذاتها أولاً، وفي موقعها الذي حددته علاقتها بالسورة التي تسبقها والتي تعقبها، وهذا يعني أننا إزاء بناءٍ متكامل الوحدات متناسبها، فما كان فيه ثانياً ما كان يجب أن يكون أولاً، وما كان فيه أولاً ما كان يجب أن يكون ثانياً، وهذا

---

(١) حصاد قلم: د. محمد عبد الله دراز، جمع وإعداد: أحمد مصطفى فضيلة، دار القلم، الكويت، ط٢، ٢٠٠٨: ٥٧.

الغرض يشمل كل العناصر والوحدات التي يضمّها النصُ الكريم، وهو ما يؤولُ إلى بنيةٍ كليةٍ، مشدودٍ أولهُا إلى آخرها، ومردودٌ آخرُها على أولها"(١).

***المحور الثاني: بلاغة المناسبة الداخلية:**

من خصائص النص الأدبي الجيد حُسْنُ اطّراده، وترابطُ أجزائهِ، وتتابعُ أفكارِه، على نحو يستجيب له العقلُ، وترتاح إليه النفسُ، ولا يستلزم ذلك وحدةَ الموضوع فحسب، وإنما يستلزم ضرباً من الترابط العضوي، ولوناً من تلاحم الوشائج النفسية والنصية على أساس العمليات الذهنية من التداعي والتضاد والنمو، وعلى أساس المهارات اللغوية من قوة الربط والمجانسة اللغوية وحسن التخلص وسهولة الانتقال، وإلى هذا المبدأ الجمالي والأدبي نظر العلماء الألّباء حين "أجمعوا على أنّ القرآن معجز في أسلوبه وبيانه، وذلك يوجب أن تكون آياته متآلفة مع بعضها بعضاً، وأن تكون سوره مرتبطة ببعضها أيضاً، لأن حسن تآلف الكلام وتناسبه مما يحسن به كلام البلغاء ويسمو، كما أنّ تفكّكه وضعف ترابطه ينزل برتبة الكلام ويضعفه، فلا بدّ إذن أن يكون البيان القرآني مراعياً للتآلف والترابط الذي يناسب سموّ إعجاز القرآن"(٢).

وإذا كان جزء من طبيعة هذه المناسبة في التركيب القرآني يعود إلى إجراءات لغوية ونصية بين الجمل والعبارات، فإنّ قسطاً وافراً منها يعود إلى ملاحظة ما بينها من صلات نفسية وعلاقات ذهنية، حتى ان الزمخشري "يذكر أن الجمل التي يقرر بعضها بعضاً تتناسق من داخلها ويأخذ بعضها بعنق بعض، وهذا التناسق الداخلي أقوى في ترابطها من ذكر حرف النسق، ولذلك كان اعتباره أدخل في البلاغة من غيره"(٣)، ومعلوم أن علم المعاني في البلاغة العربية يبحث عن أسرار الجمل وعلاقاتها ونظامها، وأن البلاغة في حقيقتها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وأن علم المناسبة "هو سرّ العربية في هذا الأداء، وهو التفسير البياني النظمي الذي يهتمّ بكشف علاقات آي القرآن الكريم بعضها ببعض بعد معرفة طرق نظم كل جملة"(٤)، وبهذا الاعتبار وبالنظر إلى علم المناسبة على أنه من متمّمات التركيب من حيث الصحة والجمال والسبك غدا "التناسب عند

---

(١) علم المناسبة ـ مدخل إلى بلاغة الخطاب: ٤٦.

(٢) علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه: ٧.

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٤٣٢.

(٤) المنهج البياني في تأويل النص: د. محمد بن مريسي الحارثي، مؤسسة الانتشار العربي، ١٤٣٦هـ: ٢١٧ . ٢١٨.

العلماء تناسبَ إسنادٍ مردُّه التركيب، وتناسب تشوق معنى إلى آخر، وهذا الأخير يهتمّ بالروابط المقصدية ويحتاج إلى زيادة احتيال تأويل"(١).

الأصل في السورة الواحدة أن تتحدّث آياتها عن موضوع واحد وأن تتناسب آياتها بروابط إذا تعدّدت موضوعاتها، ولا يشترط في تلك الروابط السببية أو المسببية بين جُمَلها وعباراتها بقدر ما تشترط "شبكة من الخطوط تتواصل فيما بينها تفضي في النهاية إلى استجابة معرفة كلية"(٢).

تتشكّل سورة الكوثر من ثلاث آياتٍ وخمس جُمَلٍ وعشرِ كلماتٍ، وكلُّها على أتمّ وجوه من المناسبة وأكملها مبنىً ومعنىً، ذلك أن أساس الأداء اللغوي الذي بنيت عليه السورة هو التفخيم والمبالغة والتعظيم، إذ جُمِع الضميرُ الدالُّ على المتكلِّم مرتين في (إنّا) وفي (أعطيناك) إيذاناً بالعظمة الالهية وعزّة سلطانه وسعة عطائه، يقول ابن عاشور: "وضمير العظمة مُشعِرٌ بالامتنان بعطاء عظيم"(٣).

وفي جملة (أعطيناك الكوثر) ألوان من التعظيم شتّى، منها أنّه جعَلَ المفعولَ الأولَ ضميرَ المخاطبِ دون الرسولِ أو نحوه، لأن في الخطاب ما لا يخفى من تعظيمه عليه الصلاة والسلام، ومنها أنه جعلَ الفاعلَ ضميرَ العظمة في إشارة إلى تعظيم أمرِ الإعطاء، وتعظيمِ أمرِ العطيَّةِ، ولعلّ في الكلام حينئذٍ الإشارةَ إلى أنّ ما أُعطِيَهُ عليه الصلاةُ والسلام عظيمٌ كمّاً وكيفاً، ومنها التعبيرُ بالماضي إشارةً إلى تعظيم الإعطاء وأنّه أمرٌ مَرْعيٌّ لم يُترَك إلى أن يُفعَل بعد، ومنها أن الجملة الفعلية مسبوقة بالمبتدأ لتقوية مضمونها وتأكيدها، جبراً لخاطر مكسور، وردّاً حاسماً على طاعنٍ مخذول، ومن ألوان المبالغة أيضاً أنه اختار لفظ (الكوثر) على زنة (فَوْعل)، وهي صيغة تدلّ على مبالغة الشيء الكثيرِ كثرةً مفرطةً، كما أن في حذف موصوفه ما لا يخفى من المبالغة بإفادة الشمول والاتساع في مدلول الخير الكثير(٤)، وأتى بـ (الكوثر) معرَّفاً بأل، ليعطي معنى الكثرة شاملاً كاملاً ، وفي ذلك تفخيم لما أولاه ربُّه من النِّعَم(٥).

---

(١) المصدر نفسه: ٢١٩.

(٢) المنهج البنائي في التفسير: ٢٠.

(٣) التحرير والتنوير: ٥٠٢/٣٠.

(٤) ينظر: روح المعاني : ٣٦٤/٢٩ . ٣٦٦.

(٥) ينظر: التبيان في علم المعاني والبديع والبيان: شرف الدين الطيبي (٧٤٣ هـ)، تحقيق: د. هادي عطية مطر الهلالي، عالم الكتب، ط١، ٢٠١١: ٥٣.

ويكشف البقاعي مظاهر أخرى من التفخيم في الآية مستعيناً بالبناء الصوتي للفظ (الكوثر) وبذوقه الأدبي الرفيع، فيقول: "ولمّا كان كثيرُ الرئيس أكثرَ من كثير غيره، فكيف بالملِك؟ فكيف بمِلِك المُلوك؟ فكيف إذا أَخرَجه في صيغةِ مبالغةٍ؟ فكيف إذا كان في مَظْهر العَظَمة؟ فكيف إذا بُنيَتِ الصيغةُ على الواو الذي له العلوُّ والغلبةُ؟ فكيف إذا أَتَتْ إثرَ الفَتْحةِ التي لها من ذلك مثلُ ذلك، بل أعظمُ، كان المعنى: أَفَضْنا عليك من كلّ شيء من الأعيان والمعاني، من العلم والعمل، وغيرهما من معادن الدارين ومعاونهما الخيرَ الذي لا غايةَ له، فلا يدخل تحت الوصف... فقد اجتمع لك الغبطتان: أشرفُ العطاءِ من أكرم المُعْطِين وأَعْظمِهم"[1].

والفعل الماضي في (أعطيناك) بتشكيله الصوتي يفيد من التفخيم ما لا تفيده بدائله اللغوية مثل (آتيناك) و(منحناك) وغيرهما، إذ يشتمل على صوتي العين والطاء، فالأول فيه طلاقةٌ ووضوحُ جَرْسٍ[2]، ويُوصَف بأنه صوت احتكاكي مجهور[3]، يمنح الأُذُن نَصاعةً ويُحدِث في السمع لذةً، والثاني من أخص صفاته الإطباق والتفخيم والاستعلاء[4]، ويوصف بأنه صوت انفجاري شديد[5]، حتى إنه لقوة تفخيمه يؤثر فيما يجاوره من الأصوات المرققة، وكلّ هذه الصفات لـ(العين) و(الطاء) من شأنها أن تضفي على الفعل مسحة من القوة والشدة تتناسب مع نغمة التفخيم التي تتجاوب صداها في جزئيات السورة كلّها.

ومن مظاهر هذا التفخيمِ المدُّ الواردُ في الآية مرتين، مرةً على هيئة المدّ المنفصل في (إنّآ أعطيناك)، ومرة أخرى على هيئة المدّ الطبيعي في ألف (أعطيناك)، ذلك أن المدَّ ارتبط كثيراً بدلالة التفخيم عند علماء التجويد وعلماء الصوت، يقول أبو العباس المهدوي (٤٤٠ هـ): "والعرب إنّما تستعمل المدّ عند التطريب وتعظيم الأمور بالوعظ والتهديد وما أشبه ذلك"[6]، ومن اللهجات

---

(١) نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: ٥٤٧/٨ .٥٤٨.

(٢) كتاب العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، و د. إبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والنشر للاعلام، العراق، ١٩٨٠: ١/ ٥٣.

(٣) ينظر: علم الأصوات: د. كمال بشر، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٠: ٣٠٤.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٠١.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٢٤٧ . ٢٤٨.

(٦) . شرح الهداية: أحمد بن عمار المهدوي (٤٤٠ هـ)، تحقيق: د. حازم حيدر، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤١٦ هـ: ٣٠/١.

العربية كالحجازية مثلاً تجنح بوجه عام إلى تفخيم الألف في النطق[١]، ولذلك فإنَّ "ظاهرة المدّ لبعض حروف كلمات القرآن مدّاً زائداً على المدّ الأصلي الطبيعي حين التلاوة يدلّ على تفخيم هذه الكلمة وزيادة معناها"[٢]، والمعنى الملحوظ في المدّ هنا هو تعظيم هذا العطاء وتفخيم أمره وتصوير ديمومته وامتداده غيرَ مقطوعٍ ولا ممنوع، وممّا يؤكّد هذا المعنى أن من خصائص أصوات المدّ القدرةَ على الاستمرار[٣]، لعدم العائق أثناء مرور الهواء إلى خارج الفم، وهذه الخاصية . أي عدم الاحتكاك او الإعاقة . سمحت لأصوات المدّ بأن "تحمل طاقة أعلى بكثير مما تحمل الصوامت التي تفقد كثيراً من طاقتها في الاحتكاك، فساعدتها قوة الطاقة هذه على أن تكون أصواتاً ذات قدرة عالية في الاسماع"[٤]، ومثل هذا الوضوح السمعي يُطلَب في وقت المواساة وفي بثّ التطمين في النفوس وفي مواقف الاستبشار بالخير، وقد رأينا في بيان أسباب النزول كيف أنَّ المخاطب . أي النبي الأكرم . كان مكلومَ الفؤاد، مكسور الخاطر، كاسف البال، لمّا قال له أعداؤه إنّ محمداً سيموت بلا عقب وينتهي بموته أمر سالته وشأن دعوته، ومؤدى ذلك أنّ هذه الصيغة التعبيرية الصوتية تُراعي ما كان عليه النبي α من أحوال النفس، ومعلوم أن ليست البلاغة في جوهرها إلا مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وأن "ليست الأحوال المعروضة أو المفروضة إلا انفعالات العواطف في النفس، او اتجاهات الخواطر في الذهن، وليست مقتضياتها إلا الصور البلاغية المناسبة التي يهتدي إليها البليغ بطبعه أو فنّه، فيؤثر بها في هذه العواطف او في تلك الخواطر التأثير الذي يريد"[٥].

وإذا كانت المدود تضيف تفخيماً في الصوت إلى تفخيم في دلالات المفردات وفي بنية التراكيب فإنّ حرف الراء الذي بنيت عليه الفاصلة في سورة الكوثر يزيد هذا التفخيم الصوتي درجاتٍ ويبلغه أقصى الغايات، لأن الأصل في صوت الراء التفخيم[٦]، يقول د. كمال بشر: "قرّر الثقات من

---

(١) في الأصوات اللغوية . دراسة في أصوات المد العربية: د. غالب فاضل المطلبي، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، ١٩٨٤: ١٦٨.

(٢) إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة: محمد شملول، دار السلام، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦: ٢٠٠.

(٣) في الأصوات اللغوية . دراسة في أصوات المد العربية: ٢٥.

(٤) المصدر نفسه: ٢٤.

(٥) دفاعٌ عن البلاغة: أحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة، مصر، ١٩٤٥: ٢٣.

(٦) حياة اللغة العربية: حفني ناصف، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط١، ٢٠٠٢: ٢٥.

الدارسين في القديم والحديث أن صوت الراء أكثر ميلاً إلى التفخيم"(١)، ثم إنّه حرف شديد مجهور مكرّر(٢)، فيه من قوة الاسماع الصوتي ما جعله كثير الدوران على اللسان وخفيفاً في النطق، وهو أكثرُ أصوات العربية توظيفاً في حرف الرويّ، وفي ذلك دليلٌ على خواصّه الصوتية التي تجعله صالحاً للتغني والإنشاد(٣)، قال سيبويه: "والراء إذا تكلَّمتَ بها خرجتْ مضاعفةً، والوقفُ يزيدها إيضاحاً"(٤).

بناءً على هذا كلّه يمكننا أن نقول: فالراء بصفة تفخيمها وخاصية تكرارها ووقوعها في نهاية الفواصل في سورة الكوثر تدلّ على عظمة العطاء وكثرته، وتكرار هذا العطاء وتواليه، وثباته واستقراره في الفاصلة الأولى، وتدلّ على الأمر بدوام الطاعة والثبات عليها، والمواظبة على التقرّب إلى الله بالصدقة والأضحية من أجود الإبل وأعظمه في الآية الثانية، وتدلّ على سنة الله التي لا تتخلف في سحق من يشاقق الرسول α بقوة لا تقهر، حتى لا حِراك به ولا يُرجى منه خير في الدنيا ولا في الآخرة في الآية الثالثة.

هكذا يتبيّن أنَّ جزءاً غير قليلٍ من التفخيم الذي بنيت عليه السورة آتٍ من طبيعة إيقاع حرف الراء، ومع "أنَّ حرف الراء ليس من حروف المدّ الثلاثة ولا من حروف الزيادة، بل ليس من الحروف الجمالية المطلقة كالهاء والسين مثلاً، لكن تجده يكسب الكلام ترنيماً خاصاً، ويضفي عليه طوابع إيقاعية ما كان لأصدائها أن تحلو أو تدقّ الأسماع، وتسري في الأرواح لولا اشتمالها عليه، حيث يكسب النص خاصية ذوقية، وجاذبية تعلق بالذهن، فيبقى صداه صورة حيةً ماثلة موقعاً على الوجدان، ومتردداً على اللسان... كما تحسّ بأن الآيات التي وحّدها إيقاع حرف الراء وانتشر على كلماتها في مقاطع قصيرة أنّه يقوّي من دلالة المعنى باستمرارية وتأثيرية، لِما يُعرَف

(١) علم الأصوات: ٤٠٥.

(٢) المدخل إلى علم أصوات العربية: د. غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ٢٠٠٤: ١٧٦.

(٣) ينظر: موسيقى الشعر: د. إبراهيم أنيس، دار القلم، بيروت . لبنان، ط٤، ١٩٧٢، : ٢٧٥، وعلم الأصوات: ٣٥٩، ٣٦٦.

(٤) الكتاب (كتاب سيبويه): أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٢، ١٩٨٢: ٤/١٣٦.

في اللغة من دلالات معاني الراء استمرار النغم والإيقاع، واستمرار التأثير في المعنى الذي قام به ووحّد كلَّ مفاصل الآيات"(١).

وقريبٌ من ذلك في التناسب الصوتي ما يُلحَظ من التوافق بين المقاطع القصيرة المغلقة التي انتهت بها الفواصل الثلاث (الكوثر . وانحر . الأبتر)، و"مجيء الفواصل القرآنية مشتملة على الحركات القصيرة يتناسب مع سرعة الحدث: وفرة ماء الكوثر، وسرعة النَّحر، وسرعة القطع، فكأنّها أحكام ماضية"(٢).

واختيار (وانحر) دون (واذبح) ومثيلاته يحقّقُ المناسبةَ على المستوى اللفظي وعلى المستوى الدلالي، فأما المستوى اللفظي فنعني به ما حدث من التوافق الصوتي في انتهاء الفواصل بالراء، وأما المستوى الدلالي فنعني به الإشارة إلى ملحظ المبالغة في التصدّق بلحم الأضحية، إذ النحر في اللغة يختصُّ بالبُدْن، وعليه يُلمَح في الآية حذف للمفعول تقديره (وَانْحَرِ البُدْنَ)، و"البدنُ من خِيار أموال العربِ"(٣)، ولعلَّ "هذا يتناسب مع سياق المبالغة في العطاء الالهي للرسول α، وكأنّ في الآية الكريمة دعوةً للحبيب α إلى التصدَّق الكثير بأفضل ما لديه شكراً لربّه على الخير الفيَّاض الذي منحه إياه، وهذا يناسبه نحرُ الإبل لوفرة لحومها، وكثرة المنتفعين بها من الفقراء قياساً على الضأن"(٤)، وهذا التأويل يتماشى مع خطّ المبالغة التي قلنا إنّ السورة بنيت عليها في اختيار ألفاظها وطبيعة تراكيبها وخصائصها الصوتية وهالاتها التعبيرية، وبهذا يظهر أنَّ علم المناسبة يوقفنا على الرأي الراجح في تقدير متعلق الفعل في الآية، ومن ثمَّ يوقفنا على الرأي الأصوب في مسائل العبادة وقضايا الفقه.

---

(١) جماليات اللغة وغنى دلالاتها من الوجهة العقدية والفنية والفكرية: محمد صادق حسن عبد الله، فيصل عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ١٩٩٣: ٢٩٨ . ٢٩٩.

(٢) التصوير القرآني في جزء عم . دراسة ادبية تحليلية: أناهيد عبد الحميد جمال حريري، السعودية، ط١، ٢٠٠٦: ٢/ ٩٦٨.

(٣) تفسير البيضاوي المسمّى أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين عبد الله البيضاوي (٦٨٥ هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين الأصفر، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠١٣: ١١٢٥.

(٤) البلاغة القرآنية في الحديث عن الرسول: د. عادل احمد صابر الرويني، مكتبة عباد الرحمن، ط١، ٢٠٠٧: ١١٨.

وقرأ ابن عباس (شَنِئَكَ) بغير ألف، على أنّه بناءُ مبالغةٍ، مثل: حَذِر، ومَزِق، وقد أثبته سيبويه[(١)]، وهذه القراءة تتناسب دلالياً مع جوّ المبالغة التي انتشرت في كلّ مفاصل السورة وأسهمت كلّ صيغها التعبيرية في تشكيلها وتأطيرها.

وفي التعبير بـ(الأبتر) دون (المبتور) ما لا يخفى من المبالغة[(٢)] في تعميم قطع كلِّ خيرٍ عمّن يبغض الرسول α في نسله، وفي حسن ذكره، وفي آثاره، ذلك "لأنّ الأبترَ صفةٌ دالةٌ على الثبوت كالأسمر والأصلع والأعمى والأعور، بخلاف المبتور الدالَّة على الحدوث، فإنَّه قد يزول عنه هذا البتر"[(٣)]، ولقد صدق الله وعيده ووعده، صدق وعيده فيمن يبغض رسوله، فزال أثره، وانقطع خيره، وانمحى ذكره، فإذا ذُكِر فلا يُذكَر إلا بالشرّ، ولا يرسل اليه إلا اللعنة، وصدق وعده في نصرة عبده، ورفعة ذكره واسمه، فبقي ذكره محفوراً في الأذهان، وتردّد اسمه دائماً على اللسان، فيطرق الآذان في كلّ مكان، وظلّ حسن صِيتِهِ يملأ الآفاق، ويبقى إلى يوم القيامة موصولاً بالأصل الثابت ينمو ويعلو، يقول سيد قطب: "ولقد صدق فيهم وعيد الله، فقد انقطع ذكرهم وانطوى، بينما امتدَّ ذكرُ محمد α وعلا، ونحن نشهد اليومَ مصداقَ هذا القولِ الكريم في صورةٍ باهرةٍ واسعة المدى كما لم يشهده سامعوه الأولون، إنّ الايمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبترَ، فهو ممتدُّ الفروع عميقُ الجذور، وإنما الكفر والباطل والشرُّ هو الأبترُ مهما ترعرعَ وزها وتجبَّرَ"[(٤)].

وفي لفظ (الأبتر) ملحظان اثنان ينبئان عن صفتي الكمال والتناهي في القطع والاستئصال، بوساطة (أل) الكمالية، واختيار أقوى صيغ التفضيل، وهاتان الصفتان تتناسبان مع خطّ المبالغة التي تسير عليها السورة، يقول سمين الحلبي: "تعريف الأبتر بأل تؤذن بالخصوصية بهذه الصفة، كأنَّه قيل: الكاملُ في هذه الصفة، والاتيان بصيغة أفعل تدلّ على التناهي في هذه الصفة"[(٥)].

ومن دلائل المناسبة الداخلية في السورة ما يُرَى من الربط المحكم بين آياتها الثلاث وجملها على المستوى النصي وعلى المستوى الدلالي، فأما الأول فيتّجه إلى ربط الآية الثانية بالآية الأولى بفاء

---

(١) ينظر: الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون: ١٢٧/١١.
(٢) روح المعاني: ٢٩/ ٣٧٢.
(٣) على طريق التفسير البياني: ١/ ١٠٥.
(٤) في ظلال القرآن: ٣٩٨٩/٦.
(٥) (٥) الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون: ١٢٩/١١.

التعقيب، كما يتّجه إلى ربط الآية الثالثة بالآية الثانية بـ (إنَّ) التعليلية، وأما الثاني فيحتاج إلى شيء من البيان والتفصيل.

لمّا بشَّره سبحانه في الآية الأولى بالخير الكثير ووافرِ النّعم عقَّبَ ذلك بفاء التعقيب، و"فاءُ التعقيبِ هنا مستعارةٌ من معنى التسبيب لمعنَيَيْن: أحدهما جَعْلُ الإنعام الكثيرِ سبباً للقيام بشكر المُنْعِم وعبادتِهِ، وثانيهما جَعْلُهُ سبباً لِتَرْكِ المبالاة بقول العدوّ"[١]، وإنَّما ارتبطت الآية الثانية بالآية الأولى على هذا الأساس النحوي والنفسي، لأن الإحسان مقدَّم على الشكر في العقل والعرف، يقول أبو السعود: "والفاءُ في (فصلِّ لربّك وانحر) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنَّ إعطاءه تعالى إياه عليه السلام ما ذُكِرَ من العطيّة التي لم يُعْطِها . ولن يُعْطِيَها . أحداً من العالمين مستوجبٌ للمأمور به أيَّ استيجابٍ، أي فَدُمْ على الصلاة لربِّك الذي أفاض عليك هذه النعمة الجليلة... وأنْحَرِ البُدْنَ التي هي خِيارُ أموال العرب"[٢].

ويرى ابن عاشور أن الآية الثانية جملة اعتراضية، إذ يقول: "وقوله (فصلِّ لربك وانحر) اعتراض، والفاء للتفريع على هذه البشارة بأن يشكر ربَّه عليها"[٣]، ورأيُه لا يخلو من سداد إذا نظرنا إلى حيثيات أسباب النزول، وعلمنا أنَّ الآية الأولى والآية الثالثة فقط تختصّان بالواقعة وتتضمنان الردَّ على أعداء الرسول α تلميحاً وتصريحاً، وكأنّ الآية الثانية تفرَّعت على الآية الأولى بعامل النموّ والاستطراد والتقييد.

ويذهب الطيبي (٧٤٣ هـ) إلى أنَّ المناسبة بين الآية الأولى والآية الثانية هي التعظيم والتفخيم اللَّذين قلنا آنفاً إن أساس السورة بني عليهما، فيقول: "إنّ الكوثرَ الخيرُ الكثيرُ، وبإفادة ضميرِ الجمعِ الدالِّ على العظمة والكبرياءِ، فإنَّ قائله ليس إلاّ إلهَ العالمين، وإنِ المُعْطَى لم يكن عظيماً، إلاّ أنّ المُعْطِيَ عظيمٌ، ولأجلِ تَيْنِك المناسبتين، رُتِّب عليه قوله (فَصلِّ لربك وانْحَر)، وَوضع

---

(١) نهاية الايجاز في دراية الإعجاز: ٣٧٧ .٣٧٨، وينظر: إعجاز سورة الكوثر: ٥٧.

(٢) تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ابو السعود العمادي، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط١، ٢٠١٠، : ٤٥١/٨، وينظر: روح المعاني: ٣٦٦/٢٩.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٥٠٣/٣٠.

المظهر موضع المضمر، يعني: كما أنَّ المُعْطِيَ والمُعطَى عظيمان، فَأْتِ أنتَ بأعظم ما يمكن من العبادات البدنية والمالية"[1].

ومن ألطف وجوه المناسبة بين الآية الأولى والآية الثانية ما ذكره الإمام الفراهي من أن الله تعالى لمّا بشَّر النَّبيَ ﷺ والمسلمين بهذه العطية عقَّبَ البشارة أمرين: الصلاة والنحر، والتعقيب يدلُّ على نسبة وربط بين السابق والتالي، أي العطية والأمر، ولعلّ من أبرز وجوه الربط بينهما ما يأتي[2]:

أولاً: أنّ هذا الأمر يتضمن بيان مقصد هذا العطاء، فإن هذا العطاء كان لمقصد عظيم، وهو عبادة الله وطاعته، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [3] ، وكما حكى الله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [4] .

ثانياً: أنّه تعالى عَقَّب ذكرَ العطيةِ ما به بقاؤها، فلمّا ربط عبادةً بعطيةٍ علِمنا أن الامتثالَ به يضمن بقاء نعمته، فكأنّه تعالى قال: إنّا أعطيناك الكوثر، فأَدِّ حقَّه، فيبقى لك هذا العطاء.

ثالثاً: أنَّه يتضمن تسلية النبي ﷺ والمسلمين، كأنَّه قيل له: إنَّهم أخرجوك ومنعوك عن الصلاة والنحر، فالآنَ بعدما أعطيناك الكوثرَ لا مانعَ لك، فافعَلْهُما بفراغ بالك، وبقدر شوقك بإكثار النحر، وبجماعة عظيمة حتى يتحقق معنى الكوثر، وقد علمنا شوقَ النبي ﷺ والمسلمين إلى الحجّ والصلاة والنسك، والأمرُ بعملٍ مرغوبٍ . مع كونه أمراً . يتضمن التبشيرَ والتسلية وإظهار الرأفة.

وهذا الذي ذكره الفراهي . رحمه الله . ثمرة معايشة وجدانية صادقة طويلة الأمد مع كتاب الله، ولا شكّ أنّه اعتمد في إيجاد هذا التناسب الدلالي على أمرين اثنين: أحدهما السياق الأصغر الذي

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب، وهو حاشية الطيبيّ على الكشّاف: الحسين بن عبد الله الطيبي (٧٤٣هـ)، تحقيق: د. يوسف عبد الله الجوازنة، طبع جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ابو ظبي، ط١، ٢٠١٣ : ٦٠٣/١٦.

(٢) ينظر: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: ٧٩٦/٢ . ٧٩٩.

(٣) الحج: ٤١.

(٤) إبراهيم: ٣٧.

يتمثل في نظم السورة وإيحاءاتها في ألفاظها وجملها وتنسيقاتها، والآخر السياق الأكبر الذي يتمثل في ربط الأفكار الرئيسة بعضها ببعض في القرآن الكريم كلّه، على أساس أن القرآن الكريم وحدة واحدة لا تقبل التجزئة، وإنما يأخذ بعضه برقاب بعض في اطراد محكم وتناسق بديع يعين على الفهم الدقيق وعلى التأويل الصحيح.

ومن وجوه المناسبة بين الآية الأولى والآية الثانية أنه لمّا بشَّر النبي ﷺ بالعطاء الجزيل أراد منه أن تبقى عينه عليه ولا تعدو عنه إلى سواه، فأمره بالصلاة لِما فيها من قرّة عينه التي تمدّه بالصبر حتى ينال الموعود، وأمرَه بالنحر لِما فيه من الدلالة على قطع النفس عن اللذة العاجلة حتى لا تصرفها عن النظر إلى اللذة الآجلة.

ومن التناسب الداخلي في الآية الثانية ما يُلحَظ من دقة الانسجام بين الأمر بالصلاة وبين الأمر بالنحر على مستوى التعبير وعلى مستوى الدلالة، فأما التناسب على مستوى التعبير فآتٍ من الاتحاد في الأسلوب الإنشائي، إذ جاءت الجملتان على صيغة (فعل الأمر) مسنداً إلى المفرد المخاطب، وآتٍ كذلك من اتحاد الفعلين فيما يتعلق بهما من الجار والمجرور مذكوريْنِ ومقدّرَيْن، فذُكِر الجارُ والمجرور مع الأمر بالصلاة (فصلّ لربّك)، لأن الصلاة لا تكون لغير الله، وأُسقِط مع الأمر بالنحر فقال: (وانحر) إيجازاً وحفاظاً على التناسب الصوتي الناتج من تواطؤ الفواصل على حرف الراء في الآيات الثلاث، ولأنّ ذبح الإبل لا يكون دائماً بِنِيَة التقرُّب إلى الله، بل قد تُذبَح إطعاماً للعيال، أو تُقَدَّم قِرىً للضِيْفَان، أو تُذبَح خوفاً من مرضٍ يودي بحياتها من غير أن يُنتفَع من لحمه ووَبَره وجلده.

وأما التناسب في الجمع بين الصلاة والنحر على مستوى الدلالة فيظهر في وجوهٍ[1]: منها أن النسبة بين الصلاة والنحر كالنسبة بين الحياة والموت، ذلك أن الصلاة سرُّها ذكر الربّ، لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾[2]، ولقوله أيضاً: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾[3]، فبِذكر الربّ تبقى الحياةُ المعبَّر عنها بالنور والسكينة والايمان، وأما النحر فحقيقتها تسليم النفس لربّها، كما دلّت عليه قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وجعل التضحية تذكاراً لتلك القصة،

---

(١) ينظر في تفاصيل هذه الوجوه وغيرها: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: ٢/٨٠٠ . ٨١٧.

(٢) طه: ١٤.

(٣) الأعلى: ١٥.

والمؤمنون يحقّقون ذلك التسليم بإهراقِ مُهَجِهم في سبيل الله، فكما أن الصلاة حياتنا بالربِّ فكذلك النحر موتنا له، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ [(١)]، فبِما ضَمَّ الصلاةَ بالنسك، وأتبعهما بالحياة والموت، دلَّ بنظم الكلام على سرِّهما، والنسبة بينهما على أسلوب التواطؤ، فالصلاة هي المحيا للمسلم، ونسكه هو مماته في سبيل ربّه، ثم هما متحدان، فإنّ هذا الموت هو باب الحياة، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤) ﴾ [(٢)].

ومن وجوه المناسبة بين الصلاة والنحر أنهما جانبان للنحر الحقيقي، وبيان ذلك أن الإنسان يُطالَب بكسر النفس وهضمها حتى لا يُحجَب عن نور ربّه، ولمّا كان هوى النفس ذا جهتين: سبعية وبهيمية، لزمَنا أن نكسر كلا جناحيها، فَهدانا لإهانتها بذبحين: ذبح السبعية وذبح البهيمية، أما الأول فبالخشوع لله والتذلّل بين يديه، وجِماعُهُ الصلاة، فإنّ بها يُقْمَع رأسُ الكِبْر، لأن الخشوع من أعظم جهات الصلاة، كما قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) ﴾ [(٣)]، وأما الثاني فبالنزوع عمّا تلتذّ به النفس وتحبّه في هذه الحياة الدنيوية، وأعلى درجاته بذل النفس في سبيل الربّ وذبح فلذة الكبد، كما في قصة ابراهيم مع ولده إسماعيل عليهما السلام، وأدناه بذلُ ما تحبّه النفسُ من إنفاق المال والأضحية بالحيوان، وكلما كان أحبّ للنفس كان عند الله أعظم أجراً، فلذلك قال تعالى: ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [(٤)]، وهكذا أُمِر بتسمين الأضاحي، فتبيّن مما ذُكِر أن الصلاة والنحر طرفان لذبح النفس، وإلى ذلك يشير ما جاء في الحديث: "الصلاةُ قُرْبانٌ"[(٥)]، و مما قاله أبو مالك . وكان من علماء اليهود . لما سأله عمر رضي الله عنه عن صفة النبي ﷺ في التوراة: "معه قومٌ صدرُوهم أناجيلهُمُ، قُرْبانُهم

(١) الأنعام: ١٦٢.

(٢) البقرة: ١٥٤.

(٣) المؤمنون: ١ . ٢.

(٤) آل عمران: ٩٢.

(٥) أخرجه الامام أحمد في مسنده: ٣/ ٣٢١.

دماؤُهُم"[١]، أي إذا كان قُربانُ الأمم السابقة بِذَبح البَقَر والغنَم والإبل فإنّ هذه الأمة يتقربون إلى الله بصلاتهم وبإراقة دمائهم في الجهاد[٢].

ومن دواعي المناسبة أن الصلاة والنحر كليهما ذكرٌ لله تعالى، أما الصلاة فظاهرٌ أنها للذكر، وذكرنا آيتين قبل قليل دلّتا على ذلك، وأما كون النحر ذكراً فدلَّ عليه القرآن أيضاً، حيث قال: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [٣]، وقال أيضاً: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [٤]، فكما نستفتح الصلاة بالتكبير، فكذلك من السنة أن نبدأ الأضحية ببسم الله والله أكبر.

ومن موجبات الجمع أيضاً أن الصلاة والنحر أعظم طرق العبادات وأقدمها وأرسخها في فطرة الناس، فترى السجود والركوع وتقديم النذور لإظهار التعبد في كلّ ملة ونحل سواءٌ عبدوا الله الواحد، أو آلهة متعددة، أو روحاً، أو صنماً، أو عظّموا إنساناً كإلهٍ معبود، ولا نرى هذا الاتفاق بينهم في سائر العبادات.

وقد يكون في الجمع بين الصلاة والنحر إشارة إلى أن الدين الحق يقوم على أداء حق الله وحق الناس، يقول فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ): "إنَّ قوله (فصَلِّ) إشارة إلى التعظيم لأمر الله، وقوله (وانحر) إشارة إلى الشفقة على خلق الله، وجملة العبودية لا تخرج عن هذين الأصلين"[٥]، وهذا الملحظ الدقيق استخلصه الرازي من القرآن الكريم كلّه، أو استنبطه من سورة الماعون التي تسبق سورة الكوثر وتنعى على المكذّبين بيوم الدين التهاونَ في الصلاة والمراءاة فيها، والقسوةَ على اليتامى والمساكين، والتقصيرَ في حق الناس بمنع الماعون، ويقول في موضع آخر: "أشار بهاتين

---

(١) ينظر: غريب الحديث: حمد بن محمد الخطابي (٣٨٨هـ)، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، تخريج الأحاديث: عبدالقيّوم عبد رب النّبي، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، ١٩٨٢: ٢/ ٥٤، والفائق في غريب الحديث: جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨ هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ٢٠١١: ٢٥٤، والنهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدّين بن الأثير (٦٠٦ هـ)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، ط٤، ٢٠١١: ٢/٤٣٠ ـ ٤٣١.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/٤٣٠.

(٣) الحج: ٣٤.

(٤) الحج: ٣٧.

(٥) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ١٦ /٣٥٦.

العبادتين إلى نوعي العبادات، أعني بهما الأعمال البدنية التي الصلاةُ إمامها، والمالية التي نحرُ البُدْنِ سَنَامُها"(١).

وأما الآية الثالثة ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ فإنّها ترتبط بالآية الثانية ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ ارتباط العلة بالمعلول، يقول الزمخشري (٥٣٨ هـ): "فَعَلَّل الأمرَ بالإقبال على شأنه، وتركِ الاحتفال بشانئه، على سبيل الاستئناف الذي هو جنسٌ حَسَنُ الموقع رائعه، وقد كثرت في التنزيل مواقعه، ويتجه أن تجعلها جملةً للاعتراض مُرسَلَةً إرْسالِ الحكمة لخاتمة الأغراض"(٢)، ويقول الآلوسي (١٢٧٠ هـ): "والجملةُ كالتعليل لما يُفْهِمُه الكلامُ، فكأنَّه قيل: إنا أعطيناك ما لا يدخُل تحت الحصرِ من النِّعَم، فَصَلِّ وانْحَرْ خالصاً لوجه ربّك، ولا تكترِثْ بقولِ الشانئ الكريهِ، فإنّه هو الأبترُ لا أنت، وتأكيدها قيل: للاعتناء بشأن مضمونها، وقيل: هو مثلُه في نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ (٣)، وذلك لمكان: فلاتكترثْ ... إلخ المفهومِ من السياق"(٤).

وكأني بالعالِمَيْن الجليلَيْن ينظران في هذه المناسبة المعنوية وفي هذا التماسك الدلالي إلى موقع (إنّ) في النظم القرآني، وإلى العلاقة الإفرادية التي تربط فعلي الأمر (فصَلِّ) و(انحر) بالوصف المضاف إلى ضمير الخطاب في (شانئك)، وإلى العلاقة الأسلوبية بين اختيار (الأبتر) والواقع الخارجي الذي يحيل عليه في سياق سبب النزول.

والنظرُ إلى موقع (إنَّ) في الكلام على أنَّها من أدوات الربط ومن وسائل تحقيق المناسبة وحفظِ النص من التفكك في المعنى وفي المبنى ملحظٌ دقيقٌ التفتَ إليه شيخُ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) بقوله: "أنكَ ترى الجملةَ إذا هيَ . أي (إنَّ) . دخلَتْ تَرتبِطُ بما قبْلَها وتأتلفُ معه وتَتَّحدُ به، حتى كأنَّ الكلامَيْنِ قد أُفرِغا إفراغاً واحداً، وكأَن أحدَهُما قد سُبِكَ في الآخَرِ، هذه هي الصورةُ، حتى إذا جئتَ إلى (إنَّ) فأسقطتَها، رأيتَ الثاني منهما قد نَبَا عن الأولِ، وتجافى

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: ٣٧٨.

(٢) إعجاز سورة الكوثر: ٥٩، وينظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: ٣٧٩ . ٣٨٠.

(٣) هود: ٣٧.

(٤) روح المعاني: ٢٩/ ٣٧١.

معناه عن معناه، ورأيْتَه لا يتَّصلُ به ولا يكونُ منه بسبيلٍ"[١]، ويقول في موضع آخر مشيراً إلى مزايا (إنَّ) في عملية الربط، وإلى خصائصها في تحقيق الألفة بين الجمل المتعاقبة: "مِنْ شأنِ (إنَّ) إذا جاءتْ على هذا الوجهِ، أَن تُغْني غَناء (الفاءِ) العاطِفةِ مثلاً، وأنْ تُفيدَ من رَبْط الجملةِ بما قبلَها أمراً عجيباً، فأنتَ تَرى الكلامَ بها مستأنفًا غيرَ مُسْتَأْنَف، ومقطوعًا موصولاً معاً، أفلا تَرى أنَّك لو أَسْقَطْتَ (إنَّ) من قولِهِ: (إنَّ ذاك النجاحَ في التبكيرِ)، لم تَرَ الكَلاَم يلتئِمُ، ولرأيتَ الجملةَ الثانيةَ لا تتَّصل بالأولى ولا تكونُ منها بسبيلٍ، حتى تجيءَ بالفاءِ فتقولُ: (بكِّرا صاحبيَّ قبلَ الهجير، فذاك النجاح في التبكير)... ثم تعلم أنْ ليستِ الأُلفةُ بينهما من جنسِ ما كان، وأَنْ ذهبتِ الأَنَسَةُ التي كنتَ تجدُ، والحُسْنُ الذي كنتَ ترى"[٢].

وإذا كانت المناسبة بين الآية الثانية والآية الثالثة ذات طابع سببي قائم على مبدأ التعليل، فإنَّ المناسبة بين الآية الأولى والآية الثالثة ذات طابع جزئي قائم على مبدأ التكامل، يقول فخر الدين الرازي: "لمّا بشَّره الله بالنِّعَمِ العظيمة، وعلِم تعالى أن النعمة لا تهنأ إلا إذا صار العدو مقهوراً ، وعَدَه بقهر العدو، فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾"[٣] ، أي قهرُ عدوِّك من تمام الكوثر ومن كماله، أو إنك لا تستطيب تلك النعمَ الكثيرة ولا تستلذها إلا إذا رأيت خذلان مبغضيك والنيلَ من شوكتهم وردَّ كيدهم إلى نحورهم.

وإلى مثله ذهب البقاعي (٨٨٥ هـ) إذ يقول: "فالآية الأخيرةُ النتيجةُ، لأنَّ من الكوثر علوَّ أمرهِ وأمرِ محبِّيه وأتباعِهِ في ملكوتِ السماء والأرض، ونهرَ الجنةِ، وسفولَ شأنِ عدوِّه فيهما، فقد التفَّ كما ترى مفصلُها بموصلها، وعُرِف آخرُها من أوَّلها، وعُرِف أن وسطاها كالحدود الوسطى معانِقةً للأولى بكونها من ثمارها، ومتصِلةً بالأخرى لأنَّها من غاياتِ مِضْمَارِها"[٤]، وقريبٌ منه ما أفاده شهاب الدين الخفاجي(١٠٦٩ هـ) في اتصال الآية الثالثة بالآولى[٥].

ومن تمام المناسبة الداخلية أن ترتدَّ خاتمة السورة على مطلعها بالتجانس أو التقاطع أو الإيحاء أو التكرار او الاستطراد أو غيرها من العلاقات، ذلك أنّه "من الضروري أن تكون خواتم السور

---

(١) دلائل الإعجاز: ٣١٦.

(٢) م. ن: ٢٧٣ . ٢٧٤.

(٣) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ٣٦١/١٦.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٨/ ٥٤٩.

(٥) ينظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٤٠٣/٨.

مثل فواتحها في الحسن، لأنها آخر ما يقرع الأسماع، والهدف من هذه العلاقة هو توفير أكبر قدرٍ من التلاؤم والتوافق بين النص ومتلقيه... وإذا كانت الخاتمة على هذا القدر من الأهمية فمن الضروري أن تتناسب . بشكل أو بآخر . مع البداية، أي أن الخاتمة الحسنة لا تقف بمعزل عن البداية الحسنة"(١)، من هذه الزاوية إذا نظرنا مرة أخرى إلى علاقة الآية الأولى بالآية الثالثة، أي من حيث كون الأولى مطلع السورة وكون الثالثة خاتمتها، وجدنا أنَّها ترتبط بها بعلاقة التضاد، إذ استهلَّتِ السورةُ بما أفاض اللهُ على نبيّه من الخير العميم والعطاء الجزيل في الدنيا والآخرة، وانتهتْ بما جعله لمبغضيه من سوء المصير والقطع عن كلّ خير وبركة، يقول الصابوني: "وفي هذه السورة مطابقة لطيفة بين أولها وآخرها، بين الكوثر والأبتر، فالكوثر: الخير الكثير، والأبتر: المنقطع ذكره وخيره، الذي لا يُذكَر إلا بالخزي واللعنة، والمنقطع عن كلّ خير، وهذه المطابقة والمقابلة من المحسنات البديعية"(٢).

يقول الرازي في بيان علاقة مطلع السورة بنهايتها: "العدوّ وصف محمداً ﷺ بالقلة والذلة، ونفسَه بالكثرة والدولة، فقلب اللهُ الأمرَ عليه، وقال: العزيزُ من أعزّه اللهُ، والذليلُ من أذلّه اللهُ، فالكثرةُ والكوثرُ لمحمد ﷺ، والأبتريةُ والدناءة والذلة للعدو، فحصلَ بين أولّ السورةِ وآخرها نوعٌ من المطابقة... ثمّ كما تكفَّل أولاً بإفاضة النِّعم عليه تكفَّل في آخرِ السورة بالذبِّ عنه، وإبطالِ قول أعدائه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه سبحانه هو الأولُ بإفاضة النِّعم، والآخرُ بتكميل النِّعم في الدنيا والآخرة"(٣)، وبناءً على طرح الرازي . رحمه الله . فإن القولَ بالموجب (٤) أساس هذا التضاد، وإنَّ الوحدة والتنوع بوصفها مبدأً جمالياً يتفرع عن هذا التضاد أيضاً، أعني الوحدة في مصدر القرار، والتنوّع في النتيجة والأثر لتعدد الباعث على الإنجاز والفعل.

---

(١) علم المناسبة . مدخل إلى بلاغة الخطاب: ٥٨.

(٢) الابداع البياني في القرآن الكريم: ٤٣٧.

(٣) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ١٦/ ٣٦١ . ٣٦٢.

(٤) القول بالموجب مصطلح بلاغي وهو: أن يخاطِبَ المتكلّمُ مخاطباً بكلامٍ، فيعمدُ المخاطَبُ إلى كلام المتكلّم فيبني عليه ما يوجب عكسَ معنى المتكلّم، وذلك عينُ القولِ بالموجب، لأنّ حقيقته ردّ الخصم كلام خصمه من فحوى لفظه، وغاية القول بالموجب ردّ كلام المتكلم وعكس معناه. ينظر: تحرير التحبير: ٥٩٩، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها: د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٣ : ٥٦٤.

وينظر العلّامة عبد الحميد الفراهي إلى هذا التضاد من وجهة أخرى حين يقول: "إنّ السورة بشارة بفتح مكة، وهي أيضاً إنذارٌ لأعداء النبي ﷺ بكونهم مقطوعين عن وراثة إبراهيم عليه السلام، فأول السورة وآخرها جاءتا على أسلوب المقابلة، ووسطها كالبرزخ بينهما ناظرة إليهما، أي من قام بالتوحيد وصلَّى ونحر أُعطِيَ الكوثر، ومن خالفَ ذلك بُتِرَ عنه، فمِثْلُ السورة كميزانٍ ذي كفّتين ولسانٍ، ففي كفَّةٍ خيرٌ كثيرٌ فما أثقلَها ! وفي كفَّةٍ بَتْرٌ كبيرٌ فما أخفَّها ! فتوازنهما كتوازن الوجود والعدم، وكما أن اللسان يتجه إلى الجانب الثقيل، فكذلك الآية الوسطى تتجه إلى الآية الأولى، ولذلك وصَلَهما بالفاء، وجعل الآيةَ الثالثةَ مفصولةً، فدلَّتْ بأسلوبها على قطعِ أعداء النبي ﷺ عن الكوثر المخصوص بأحِبَّائِهِ"[١].

وإذا كان هذا التضاد بين أول السورة وآخرها أضفى على النص الكريم جمالاً يحقق التناظر والتناسب فإنَّه من جانب آخر تضمَّن إبطالاً وإدماجاً [٢]، إبطالاً لكيد الطاعنين، وإدماجاً للعطاء الالهي في زعم القائلين، يقول ابن عاشور في تعليق له على الآية الأولى: "وأريد من هذا الخبر بشارة النبي ﷺ وإزالةُ ما عسى أن يكون في خاطره مِنْ قول مَنْ قال فيه: هو أبتر، فقُوبِلَ معنى الأبتر بمعنى الكوثر، إبطالاً لقولهم"[٣]، ويقول أحدُ الدارسين المحدثين: "إنّ في السورة إدماجاً حسناً، حيث أدمج العطاء الرباني للرسول ﷺ في إبطال كيد مبغضيه، وقد أكَّد هذا الإبطال مرتين، مرةً بالتلويح في أول السورة، ومرةً بالتصريح في آخرها"[٤].

ثمّ لننظر من ناحية أخرى "كيف أسند الله الإعطاء إلى ذاته العلية ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، ولم يسند البتر إلى ذاته، فلم يقل: وجعلنا شانئك هو الأبتر، بل أسنده إلى الشانئ نفسه، فإنّه أبتر من غير جَعْلِ جاعل، وإنما ذلك وصفه هو، وذلك أذمّ له وأقبح"[٥].

هكذا نجد أنّ المناسبة بين مطلع السورة وخاتمتها على أساس علاقة التضاد تتضمن جملةً من القيم الجمالية ومن الايحاءات الدلالية، ومزيد ذلك يتبيّن من التقرير الآتي: المطلع صيغته اللفظية

---

(١) نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: ٨٣٠/٢.

(٢) الادماج في البلاغة هو أن يُضمِّنَ المتكلمُ كلامَه الذي ساقه لِمعنىً، معنىً آخرَ لم يُصرِّح به، ينظر: المفصل في علوم البلاغة العربية، د. عيسى علي العاكوب، دار القلم، الامارات . دبي، ط١، ١٩٩٦: ٦٠٥.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٥٠٣/٣٠.

(٤) البلاغة القرآنية في الحديث عن الرسول ﷺ: ١٢٠.

(٥) على طريق التفسير البياني: ١٠٧/١.

جاءت بالجمع (إنا أعطيناك)، في حين جاء الختام بصيغة الإفراد في مفردتي (الأبتر) و(شانئك)، والمطلع بشارةٌ بالخير ووعدٌ بالامتداد وتهنئة بالسعة، والختام تهديدٌ بالشرّ ووعيدٌ بالاستئصال وإرصادٌ بالبطش، وفي المطلع جاء الوعد على لسان الخالق القوي الذي لا يخلف الميعاد، أما الختام فيحكي نقصاً موجهاً إلى شخص النبي ﷺ على لسان المخلوق الضعيف الذي لا ينجز شيئاً غير الكلام الفارغ الذي يؤذي، الأول عطاءٌ لا ينتهي، والثاني انقطاعٌ لا يُرجَى خيره.

وأما المناسبة بين الآيات الثلاث دفعةً واحدةً فلم أرَ من المفسرين من ربط بينها ربطاً محكماً ودقيقاً مثل الرازي إذ يقول: إنَّ قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ يفيد تعظيم حال محمد ﷺ من وجوه، منها كأنه يقول له: جميع ما نِلْتَ مني في الدنيا وما ستنال في الآخرة، وإن كانت كوثراً، إلا أنَّ الأعظمَ من ذلك الكوثر أن يُستطاب ذكرُك، وأن تنتصر على عدوك، وترى خصمك مغلوباً على أمره، مقطوعاً عن كلّ خير وعن كلّ بركة، والذكرُ الباقي والظفرُ على العدوّ لا يتحققان إلا بعد إقبالك على الطاعة ليحصل لك العزّ والغلبة ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، أي فاعبدني وسَلِ الظفر بعد العبادة، فإني أوجبتُ على نفسي أن بعد كلّ فريضة دعوةً مستجابةً، فحينئذٍ أستجيبُ دعوتَك فيصير خصمك أبترَ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ (١).

نتائج البحث

في إثر البحث والتنقيب عن أوجه العلاقات البلاغية في سورة الكوثر خارجياً وداخلياً توصلنا إلى نتائج نسجلها في إيجاز كما يأتي:

. لسورة الكوثر تميّز بلاغي شاخص يتمثل في اشتمالها على فنون بلاغية وُظِّفتْ لأداء رسائل دعوية وإبلاغية وانفعالية ودفاعية.

. المناسبة علمٌ عُنِيَ به في التراث العربي والاسلامي في حقول البلاغة وعلوم القرآن الكريم والنقد الأدبي، وتطبيقاته في القرآن الكريم، أغنتْ الحقول المعرفية واللسانية بروافد أصبحت نواةً لنظريات التماسك الدلالي وإحكام البناء في الخطاب الأدبي.

. المناسبة في الدراسات الأدبية القديمة دُرِست تحت تسميات (القِران) و(الإفراغ) و(التلاحم) و(حسن النظام) و(حسن النسق)، وتناولها المحدثون تحت مسميات (روح التركيب) و(النظام)

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ١٦/ ٣٤٨ . ٣٤٩.

و(النسق) و(جو السورة) و(الوحدة البنائية) و(والطابع) و(وحدة الرسم والشعور) و(التفسير الموضوعي) و(التناسب) وغيرها.

. ترتبط سورة الكوثر بواقعها الخارجي وبملابسات نزولها ارتباطاً يعين على تأويل الكوثر على نحو واسع لا يحصره في مدلول واحد أو في موصوف معين.

. تتناسب سورة الكوثر مع ما سبقها وما لحقها من السور، فهي ترتبط بسورة العاديات على أساس المخالفة في الدلالة، وعلى أساس التناظر في الشكل، في حين تتناسب مع سورة التكاثر على أساس توجيه العتاب على ما عابوا به النبي ﷺ وأصحابه من القلة والضعف.

. أما علاقة سورة الكوثر بجارتَيْها في المصحف فهي من أوثق العلاقات وأمتنها، إذ تتصل بسورة الماعون على أساس المقابلة من وجوهٍ شتى، وعلى أساس الغاية والوسائل، ولا يقلّ اتصالها بغيرها من السور التي سبقتها غير سورة الماعون، أما علاقتها بسورة الكافرون فجاءت على أساس الأصل الذي بُنِي عليه إظهار البراءة وقطع أطماع الكفار عن وراثة الكعبة.

. الخط العام الذي بُنِيَتْ عليه السورة هو التفخيم والمبالغة والتعظيم في اختيار الكلمات وفي صياغة الجمل وربط بعضها ببعض وفي توظيف الأصوات وفي بناء الفاصلة على حرف الراء، ولا سيما في الوقف.

. يتصل مطلع السورة بخاتمتها أحسن اتصال وأشدّه منظوراً إليه من وجهة التضاد في جوانب مختلفة تتفرّع عنها إيحاءات يستجيب لها العقل وترتاح إليها النفس.

The Rhetorical Relations in Surah Al Kawthar

Asst.Prof.Dr.Saleh Mulla Aziz

Abstract

This study which is entitled "The Rhetorical Relations in Surah Al Kawthar" is a matter of rhetoric survey in the shortest surah of Holy Qura´n which is surah Al Kawthar، The study has an introduction and two sections. The introduction deals with the rhetorical distinctions of the Surat and its rhetorical arts,in the lights of critics and writers, while the first section deals with Occasional rhetorical in the form of of Al-Kawthar relationship with Al-Maoon, and its relation with the surat Alkafron, the second section talks about the internal occasion, which includes proportionality between sentences and phrases and the general format that goes in three verses throughout the length and breadth of Sura, the paper ends with a conclusion where the most important results are drawn .